

كلية المعرفة
للدراسات الإسلامية
والعربية

علم القرآن الكريم

الدكتور
غانم قدوري

المرحلة الأولى


منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردى - عربي - فارسي)
www.iqra.ahlamontada.com

علوم القرآن الكريم

الدكتور
غانم قدوري حمد

الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مطبعة الميناء - بغداد

تمهيـــد

اولاً - (علوم القرآن) وتاريخ التدوين فيها:

ارتبطت الدعوة الاسلامية بالقرآن الكريم منذ أول أيامها، فكان نزوله إيذاناً بابتداء تلك الدعوة العظيمة، وقد ظل يوجهها طيلة ثلاث وعشرين سنة. حتى اكتمل نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت عناية المسلمين بالقرآن كبيرة، منذ الجيل الاول، فكانوا يقرؤونه ويرتلون كلماته، لا يصدهم عن ذلك شغل. وكان أول عمل يقوم به من يدخل في الاسلام هو ان يتعلم القرآن ويتفقه في الدين. وقد بلغ تعلق المسلمين بالقرآن وتلاوته ان كثيراً منهم كانوا يحفظونه في صدورهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل عليه الشيء من القرآن أمر الصحابة بكتابته. فكتب القرآن كله في زمنه على قطع مختلفة كالجلود وقطع الخشب والاحجار واكتاف الابل، لعدم توفر الورق حينذاك. وقد جُمِعَ القرآن في صحف منظمة من تلك القطع في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم أنْتُسِخَتْ عدة مصاحف من تلك الصحف في خلافة عثمان رضي الله عنه ووُزِّعَت على أمصار المسلمين فأقبلوا ينتسخون منها المصاحف، فكثرت النسخ المكتوبة من القرآن وصار كل مسلم يرجو ان تكون له نسخة من المصحف، ليقرأ فيها القرآن.

ولم تكن عناية المسلمين بالقرآن الكريم تَقِفُ عند حد الحرص على كتابته وترتيل حروفه بل تجاوز ذلك الى التأمل في معانيه ومعرفة أحكامه والعمل بها وتطبيقها في الحياة اليومية. قال التابعي أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٧٣هـ): «حدثني الذين كانوا يقرئوننا، عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وابي بن كعب رضي الله عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم عشر آيات، فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»(١).

---

(١) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦/ ١٧٢، وابن مجاهد: كتاب السبعة ص٦٩.

وكان الصحابة اذا أعجزهم فهم معنى شيء من آيات القرآن سألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينه لهم.

وبينما كان عامة المسلمين في الاجيال الاولى مشغولين بقراءة القرآن وتفهم معانيه والاهتداء بأحكامه في حياتهم كان عدد من العلماء منهم يعملون على صيانة النص القرآني والمحافظة عليه وتيسير قراءته وتفسير معانيه، فظهرت الكتب المؤلفة في ذلك في أول عصر التدوين للعلوم العربية والاسلامية وهي تتناول جوانب متعددة تتعلق بالقرآن الكريم، اطلق عليها فيما بعد اسم «علوم القرآن».

ان التدوين في «علوم القرآن» اتخذ اتجاهين:

الاول: يستقل فيه كل علم بكتب خاصة به، فمثلاً للقراءات كتب مستقلة، وللتفسير كتب كذلك ومثلها كتب غريب القرآن، والوقف والابتداء، والناسخ والمنسوخ، وهكذا في بقية «علوم القرآن» كل علم له كتاب لا يشاركه فيها غيره.

الثاني: يتمثل بكتب تقدم خلاصة للكتب المدونة في كل من «علوم القرآن»، فنجد في الكتاب الواحد بياناً ملخصاً للقراءات والكتب المؤلفة فيها الى جانب بيان ملخص لتاريخ التفسير وكتبه، والناسخ والمنسوخ وكتبه، وهكذا في بقية الموضوعات المتصلة بالقرآن الكريم. وهذا النوع من المؤلفات هو الذي تصدق عليه كلمة «علوم القرآن» بمعناها العام وسوف نستعرض هنا اهم تلك المؤلفات العامة، منذ ظهورها حتى عصر السيوطي الذي كتب أكبر كتاب من هذا النوع.

١ ـ كتاب «الفهرست» لابن النديم

في ايدي الدارسين اليوم وثيقة تاريخية مهمة تبين اسماء العلماء ومؤلفاتهم في علوم القرآن وغيرها منذ بداية عصر التدوين حتى أواخر القرن الهجري الرابع. تلك الوثيقة هي كتاب «الفهرست» الذي ألفه محمد بن اسحاق المشهور بابن النديم، المتوفى سنة ٣٨٥هـ على الارجح. قال في مقدمة كتابه: «هذا فهرست كتب جميع الامم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في اصناف العلوم واخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وانسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ اعمارهم

وأوقات وفاتهم واماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع الى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة»[2].

وكتاب «الفهرست» مقسم الى عشرة ابواب، سماها ابن النديم «مقالات» وكل باب مقسم الى عدة فصول، سماها ابن النديم «فنوناً». وقد خصص الفن الثالث من المقالة الاولى لعلوم القرآن. قال: «الفن الثالث في نعت الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، واسماء الكتب المصنفة في علومه واخبار القراء واسماء رواتهم والشواذ من قراءتهم»[3].

ويعد هذا الفصل الذي كتبه ابن النديم من اقدم ما كتب عن «علوم القرآن» بالمعنى العام الشامل، وقل من تعرض لذكره من الباحثين، على اهميته الكبيرة في بيان تاريخ التأليف في علوم القرآن.

بدأ ابن النديم الفصل الخاص بعلوم القرآن بالكلام عن جمع القرآن في الصحف، ثم كتابة المصاحف وبثها في الامصار ثم ذكر بعد ذلك[4]:

باب نزول القرآن بمكة والمدينة وترتيب نزوله.

أخبار القراء السبعة واسماء رواياتهم وقراءتهم.

اسماء قراء الشواذ.

تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن. ذكر فيه ٤٥ كتاباً.

الكتب المؤلفة في معاني القرآن ومشكله ومجازه. ذكر فيه ٢٥ كتاباً.

الكتب المؤلفة في غريب القرآن. ذكر فيه ١٤ كتاباً.

الكتب المؤلفة في لغات القرآن. ذكر فيه ٦ كتب.

الكتب المؤلفة في القراءات. ذكر فيه ٢٢ كتاباً.

الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن. ذكر فيه ٦ كتب.

الكتب المؤلفة في لامات القرآن. ذكر فيه ٤ كتب.

الكتب المؤلفة في الوقت والابتداء في القرآن ذكر فيه ١٢ كتاباً.

---

(٢) الفهرست ص٢.

(٣) الفهرست ص٢.

(٤) الفهرست ص٢٤ ـ ٣٩.

الكتب المؤلفة في اختلاف «هجاء» المصاحف. ذكر فيه ٧ كتب.
الكتب «المؤلفة» في وقف التمام. ذكر فيه ٦ كتب.
الكتب المؤلفة فيما اتفقت الفاظه ومعانيه في القرآن. ذكر فيه كتابين.
الكتب المؤلفة في متشابه القرآن. ذكر فيه ١٠ كتب.
الكتب المؤلفة في هجاء المصاحف. ذكر فيه ٣ كتب.
الكتب المؤلفة في مقطوع القرآن وموصوله في الهجاء. ذكر فيه ٣ كتب.
الكتب المؤلفة في اجزاء القرآن. ذكر فيه ٦ كتب.
الكتب المؤلفة في فضائل القرآن. ذكر فيه ١٢ كتاباً.
الكتب المؤلفة في عدد أي القرآن. ذكر فيه ١٩ كتاباً.
الكتب المؤلفة في ناسخ القرآن ومنسوخه. ذكر فيه ١٨ كتاباً.
الكتب المؤلفة في نزول القرآن. ذكر فيه كتابين.
الكتب المؤلفة في احكام القرآن. ذكر فيه ١١ كتاباً.
الكتب المؤلفة في معان شتى من القرآن. ذكر فيه ٢١ كتاباً.
ذكر أسماء من القراء المتأخرين.

والذي يقرأ هذا الفصل من كتاب «الفهرست» يلاحظ جملة امور منها:

١ ـ ان التأليف في علوم القرآن قد بدأ في وقت مبكر، فقد ذكر ابن النديم كتاب ابن عباس «ت ٦٨هـ» في التفسير، رواه عنه تلميذه مجاهد. وذكر كتابين لعبد الله بن عامر اليحصبي «ت ١١٨هـ» قارىء اهل الشام: احدهما في اختلاف «هجاء» مصاحف الشام والحجاز والعراق، والثاني كتابه في مقطوع القرآن وموصوله في الهجاء أيضاً وهذا يدل على بدء اشتغال العلماء بالتأليف في علوم القرآن منذ القرن الاول للهجرة.

٢ ـ تنوع الكتب المؤلفة في علوم القرآن، فهي تشمل رسم المصحف «الهجاء» والنقط والشكل، والقراءات، ولغة القرآن وغريبه، والتفسير، والوقف والابتداء، واجزاء القرآن وعدد حروفه وكلماته وآياته، وفضائل القرآن، وغير ذلك. وكل موضوع من هذه الموضوعات اطلق عليه لفظة «علم» واطلقت لفظة «علوم القرآن» دلالة على تلك الموضوعات.

٢ ـ ان اكثر الكتب التي ذكرها ابن النديم غير موجودة اليوم بنصها الاصلي. وقد مر الان اكثر من الف عام على عصر ابن النديم، الذي رأى تلك الكتب، فوصفها وذكرها في كتابه، ولاشك في ان تقادم الزمن وما تتعرض له الكتب من آفات البلى قد أذهب تلك الكتب الا قليلاً منها. واكثر ما بقي منها لايزال مخطوطاً لم يطبع بعد.

واذا كانت تلك الكتب قد ذهبت صورتها الاصلية فان مادتها ظلت محفوظة في بطون كتب اخرى ألفها العلماء بعد عصر ابن النديم، ووصل كثير منها الينا، ولو نظرنا في الكتب التي ذكرها ابن النديم في موضوع النقط والشكل لوجدنا انها قد فقدت جميعها وهي:

كتاب الخليل في النقط.

كتاب محمد بن عيسى في النقط.

كتاب اليزيدي في النقط.

كتاب ابن الانباري في النقط والشكل.

كتاب أبي حاتم السجستاني في النقط والشكل بجداول ودارات.

كتاب الدينوري في النقط والشكل[٥].

ونجد ان مؤلفاً عاش بعد ابن النديم، وهو ابو عمرو بن سعيد الداني «ت ٤٤٤هـ» قد حفظ لنا مادة تلك الكتب في كتابه القيم «المحكم في علم نقط المصاحف» وذكر انه اطلع على اكثر الكتب التي ألفت قبل عصره في الموضوع، فقال في مقدمة كتابه «المحكم»: «واول من صنف النقط ورسمه في كتاب وذكر علله الخليل بن احمد، ثم صنف بعده جماعة من النحويين والمقرئين، وسلكوا فيه طريقه، واتبعوا سنته، واقتدوا بمذاهبه منهم:

ابو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي.

وابنه ابو عبد الرحمن عبد الله بن ابي محمد.

وابو حاتم سهل بن محمد السجستاني.

وابو الحسين احمد بن جعفر بن المنادي.

---

(٥) الفهرست ص٣٥.

وابو بكر احمد بن موسى بن مجاهد.
وابو بكر محمد بن عبدالله بن أشته.
وابو الحسن علي بن بشير مقرىء اهل بلدنا.
وجماعة غيره، غير هؤلاء»[٦].

فالداني قد اطلع على أكثر المؤلفات التي ذكرها ابن النديم، واطلع على غيرها. وعبارة «جماعة غيره، غير هؤلاء» توحي ان الداني اهمل ذكر بعض المؤلفين اختصاراً لا جهلاً بهم، ويدل على ذلك النقول الكثيرة التي ضمنها كتابه عن علماء لم يذكرها في قائمته السابقة.

٤ ـ لم يكتف ابن النديم بسرد اسماء العلماء وذكر مؤلفاتهم، ولكنه ترجم لبعض المشهورين منهم باسلوب موجز دقيق، يتضمن اسم المؤلف وبلده وتاريخ ولادته ووفاته، والعلوم التي اشتهر بها، ثم يذكر مؤلفاته.

٥ ـ مصطلح «علوم القرآن»:

يفيدنا الفصل الذي كتبه ابن النديم في تحديد زمن استخدام مصطلح «علوم القرآن» فالباحثون المحدثون لم يتفقوا على تحديد العصر الذي استخدم فيه المصطلح:

ولعل الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني هو أول من أثار الموضوع على نحو بارز في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» اذ تحدث عن تاريخ التدوين في هذا العلم فقال: «ولقد كان المعروف لدى الكاتبين في تاريخ هذا الفن ان اول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح اي اصطلاح علوم القرآن، هو القرن السابع، لكني ظفرت في دار الكتب المصرية بكتاب لعلي بن ابراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي المتوفى سنة ٣٣٠هـ ـ الصواب ٤٣٠هـ ـ اسمه «البرهان في علوم القرآن» وهو يقع في ثلاثين مجلداً، والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً، غير مرتبة ولا متعاقبة، من نسخة مخطوطة، واذن نستطيع ان نتقدم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان اي الى بداية القرن الخامس بدلاً من القرن السابع»[٧].

---

(٦) المحكم ص٩.
(٧) مناهل العرفان ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

وقد تابع بعض الباحثين الشيخ الزرقاني في رأيه ونقل عبارته حتى الخطأ المطبعي في تاريخ وفاة الحوفي[8]. لكن بعض العلماء تنبهوا الى ان كتاب الحوفي تفسير للقرآن الكريم. يقول الدكتور محمد د محمد ابو شهبة عن كتاب الحوفي: «والرأي عندي ان هذا الكتاب لا يخرج عن كتب التفسير التي تتعرض لفكر التفسير، واسباب النزول والقراءات والوقف والتمام، ولا فرق بين صنيعه وصنيع القرطبي والفخر الرازي في تفسيرهما، فكتابه هذا أمس بالتفسير منه بعلوم القرآن، وقد ذكر «أي الزرقاني» رحمه الله ان الجزء الاول مفقود. ولا أدري من أين عرف التسمية؟ ولعله اعتمد على فهرس دار الكتب. وقد رجعت الى كتاب كشف الظنون (١/٢٤٢) فتبين لي ان اسم الكتاب «البرهان في تفسير القرآن» وبذلك زالت الشبهة في عده من علوم القرآن، وثبت انه تفسير وهو الحق والصواب»[9].

فكتاب الحوفي اذن اسمه «البرهان في تفسير القرآن» وما جاء في فهرس دار الكتب المصرية غير صحيح وقد ذكر الداودي في كتابه «طبقات المفسرين» الحوفي فقال: «له تفسير جيد سماه: البرهان في تفسير القرآن»[10].

ولا يحتاج الباحثون في تحديد العصر الذي شاع فيه استخدام مصطلح «علوم القرآن» الى الرجوع الى كتاب الحوفي، وهو لا يصلح دليلاً كما لاحظنا. فابن النديم وهو اقدم من الحوفي، استخدم مصطلح «علوم القرآن» في اكثر من مكان، قال وهو يتحدث عن موضوعات كتابه: «الفن الثالث في نعت الكتب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، واسماء الكتب المصنفة في علومه»[11] أي الكتب المصنفة في «علوم القرآن». وقال في ترجمة ابن مجاهد: «وكان مع فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات وعلوم القرآن حسن الاداب، رقيق الخلق»[12].

---

(٨) انظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص١٣ ـ ١٤.

(٩) المدخل لدراسة القرآن الكريم ص٣٥ ـ ٣٦.

(١٠) طبقات المفسرين ١/٣٨٢.

(١١) الفهرست ص٢.

(١٢) الفهرست ص٣١.

وقال في ترجمة احمد بن كامل بن خلف: «أحد المشهورين في علوم القرآن»[13].

وقال في ترجمة ابن المنادي: «وكان الغالب عليه علوم القرآن»[14].

ويذكر لنا ابن النديم في «الفهرست» الى جانب ذلك كتاباً يحمل عنوانه مصطلح «علوم القرآن» وهو «كتاب الحاوي في علوم القرآن، كبير، سبعة وعشرون جزءاً» من تأليف محمد بن خلف بن المرزبان «ت ٣٠٩ هـ»[15]. ولا نعلم عن موضوع الكتاب شيئاً، وابن المرزبان هذا اخباري حافظ للملح والاشعار، وليس في كتبه كتاب اخر يمت الى علوم القرآن بصلة[16]. ويذكر ابن النديم «كتاب الانوار في علم القرآن» من تأليف ابي بكر محمد بن الحسن بن مقسم «ت ٣٦٢هـ»[17].

وإذا كان ابن النديم لم يذكر بشكل واضح ومحدد كتاباً نعرف موضوعه يحمل في عنوانه مصطلح «علوم القرآن» فانه استخدم ذلك المصطلح بمعناه الذي تعارف عليه الدارسون في اكثر من موضع من كتابه، ويمكن القول من خلال ما ذكره ابن النديم «الفهرست» ان مصطلح «علوم القرآن» كان مستخدماً في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه ابن النديم، ولا يستبعد ان يكون قد استخدم في فترة اقدم من ذلك، ولكن تأكيد ذلك يحتاج الى مزيد استقصاء في المصادر.

٢ ـ فنون الافنان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي:

ابن الجوزي «ابو الفرج عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ» من العلماء المشهورين جداً في جوانب متعددة من العلم، وله مؤلفات تجاوزت الاربعمائة، في علوم القرآن والحديث وعلومه والفقه والاصول والعقائد والوعظ والاخلاق والتربية واللغة والادب والتاريخ والجغرافية والطب، وقد بلغت مؤلفاته في الدراسات القرآنية زهاء الثلاثين كتاباً[18].

---

(١٣) الفهرست ص٣٢.

(١٤) الفهرست ص٣٩.

(١٥) الفهرست ص١٤٩.

(١٦) انظر عن ترجمته ومصادرها: معجم المؤلفين لعمر رضا، كحالة ٩/٢٨٥.

(١٧) الفهرست ص٣٣.

(١٨) انظر مقدمة محقق كتاب فنون الافنان، ص٧.

وكتاب «فنون الافنان»[١٩] كتاب صغير من حيث الحجم، فهو لا يتجاوز المئة صفحة، ولكنه ذو اهمية في تاريخ التاليف في علوم القرآن فلا يزال اقدم الكتب التي وصلت الينا تحمل ذلك الطابع العام في التأليف في علوم القرآن. وان كان لا يمثل الصورة الاخيرة التي انتهى اليها هذا النوع من المؤلفات.

بدأ ابن الجوزي كتابه بمقدمة لم تتجاوز الصفحة الواحدة، قال فيها بعد الحمد لله والدعاء: «لما الفت كتاب التلقيح في غرائب علوم الحديث رأيت ان تأليف كتاب في عجائب علوم القرآن اولى. فشرعت في سؤال التوفيق قبل شروعي.»[٢٠].

وهذه عناوين ابواب الكتاب:

باب ذكر نبذة من فضائل القرآن ص٢٤

باب في ان القرآن غير مخلوق ص٢٥.

باب نزول القرآن على سبعة أحرف ص٣١.

باب في كتابه المصحف وهجائه ص٣٦.

باب عدد سور القرآن وحروفه ونقطه ص٣٩.

باب ذكر اجزاء القرآن ص٤٤.

باب عدد آيات السور ص٥٢.

باب ذكر القرائن من السور في العدد ٧٤.

باب بيان السور المكية والمدنية ص٧٦.

باب ذكر اللغات في القرآن ص٧٧.

باب في آداب الوقف والابتداء ص٧٩.

باب في الياءات المحذوفات ص٨٥.

ابواب المتشابهة، وهو ايراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ص٨٦.

باب ذكر الاوصاف التي شاركت امتنا فيها الانبياء عليهم السلام ص١٢٢ ـ ١٢٤

---

(١٩) طبع الكتاب في الدار البيضاء في المغرب بتحقيق احمد الشرقاوي. اقبال سنة ١٩٧٠م.

(٢٠) فنون الافنان ص٢٣

٣ ـ جمال القراء وكمال الاقراء لعلم الدين السخاوي.

علم الدين السخاوي «أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد ت ٦٤٣هـ» من العلماء المشهورين بعلوم القرآن وعلوم العربية، وكتابه «جمال القراء» من كتب علوم القرآن المشهورين عند المتقدمين، وان كان اقل شهرة عند المعاصرين، لانه مايزال مخطوطاً لم يطبع وهو كتاب كبير الحجم يقع في مائتي ورقة.

قال المؤلف في مقدمته الموجزة بعد الاستفتاح بالحمد لله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء: «هذا وان أجل ما بأيدي هذه الامة كتاب ربها، الناطق بمصابيح دينها ودنياها، الموضح لها مراشد أولاها وعقباها، وان اشرف العلوم ما كان منه بسبيل، واجل الرسوم فنونه التي هي اعلى الدرجات في التقديم والتفضيل، وفي هذا الكتاب من علومه «أي علوم القرآن» ما يشرح الالباب، ويفرح الطلاب، وينيلهم المنى ويفيدهم الغنى، ويريحهم من العناء ويمنحهم مادعت اليه الحاجة بأيسر الاعتناء، فهو كأسمه جمال القراء وكمال الاقراء...»[21].

وكتاب «جمال القراء» وان كان لا يبلغ حجم كتاب «البرهان» للزركشي. وكتاب «الاتقان» للسيوطي، ولا يصل الى دقة التبويب فيهما، لكنه قد حوى أهم موضوعات علوم القرآن، وتحدث عن بعض الموضوعات باسهاب لانجده في غيره من الكتب.

والكتاب يتألف من عناوين كبرى تندرج تحتها موضوعات علوم القرآن، وهي:

نثر الدرر في ذكر الآيات والسور.

الافصاح الموجز في ايضاح المعجز.

منازل الاجلال والتعظيم في فضائل القرآن العظيم.

اقوى العدد في معرفة العدد.

الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ.

مراتب الاصول وغرائب الفصول «في احوال القراء وقراءتهم».

منهاج التوفيق في معرفة التجويد والتحقيق.

---

(٢١) جمال القراء ورقة ٣٩ظ، مخطوطة الظاهرية رقم ٣٢٣٠ قراءات،

علم الاهتداء في معرفة الوقف والابتداء.
دعائم ختم القرآن.

وقد اعتمد على كتاب «جمال القراء» عدد من المؤلفين في علوم القرآن، من المتـ عين منهم تلميذ المؤلف شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل، المعروف بأبي شامة المقدسي «ت ٦٦٥هـ» مؤلف كتاب «المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»، وهذا الكتاب في «معرفة كيفية نزول القرآن وجمعه وتلاوته، ومعنى الاحرف السبعة التي نزل عليها، والمراد بالقراءات السبع وضابط ما قوى منها، وبيان ما انضم اليها، والتعريف بحق تلاوته وحسن معاملته»[٢٢]، وقد نقل ابو شامة من كتاب شيخه عدداً من النصوص، مثل قوله: «وقد ذكره شيخنا ابو الحسن رحمه الله في كتابه جمال القراء في باب مراتب الاصول وغرائب الفصول فقال...»[٢٣].

ونقل الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» والسيوطي في كتابه «الاتقان في علوم القرآن» عن كتاب «جمال القراء» عدداً من النصوص[٢٤]، وهو امر يدل على اهمية الكتاب في الدراسات المتعلقة بعلوم القرآن، ونرجو الا يطول الوقت حتى نرى الكتاب قد طبع وصار بأيدي القراء والباحثين.

٤ ـ البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي:

ان احد اكبر كتابين في علوم القرآن هو كتاب «البرهان في علوم القرآن» للامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي «ت ٧٩٤هـ»، ويتألف هذا الكتاب من أربعة اجزاء كبيرة. وقد قال المؤلف بعد مقدمة استغرقت بضع صفحات[٢٥]: «ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن. ومما فات المتقدمين وضع كتاب يشتمل على انواع علومه، كما وضع الناس ذلك بالنسبة

---

(٢٢) المرشد الوجيز ص٧.
(٢٣) المرشد الوجيز ص١٧٢. وانظر ايضاً ص٢٧ و٥٥ و١٢٣ و١٦٠ و١٧٩ و٢١٢.
(٢٤) انظر البرهان ١/٢١٣ والاتقان ١/١٨ و٤٠ و٤٤ و٥٥ و٦١ و١٠٣ و١١٩ و١٥٦ و١٦٢ و١٦٧ و٢٥٦ و٢٨٥.
(٢٥) البرهان ١/٩.

الى علم الحديث، فاستخرت الله تعالى ـ وله الحمد ـ في وضع كتاب في ذلك. جامع لما تكلم الناس في فنونه، وخاضوا في نكته وعيونه، وضمنته من المعاني الانيقة، والحكم الرشيقة ما يهز القلوب طرباً، ويبهر العقول عجباً، ليكون مفتاحاً لابوابه، وعنوانه على كتابه، معيناً للمفسر على حقائقه ومطلعاً على بعض أسراره ودقائقه، والله المخلص والمعين، وعليه اتوكل وبه استعين، وسميته «البرهان في علوم القرآن» وهذه فهرست انواعه:

الاول: معرفة سبب النزول.

الثاني: معرفة المناسبات بين الآيات.

الثالث: معرفة الفواصل...

وذكر المؤلف سبعة واربعين نوعاً، ثم قال: «واعلم انه ما من نوع من هذه الانواع الا ولو اراد الانسان استقصاءه لاستفرغ عمره، ثم لم يحكم امره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على اصوله...

٥ ـ الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي:

كتاب الاتقان هو ثاني اكبر كتابين في علوم القرآن، وهو من تاليف الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي «ت ٩١١هـ» وقد جمع السيوطي في كتابه خلاصة ما كتب في علوم القرآن الى زمانه.

قال في مقدمة الكتاب: كنت في زمان الطلب اتعجب من المتقدمين اذ لم يدونوا كتاباً في انواع علوم القرآن، كما وضعوا ذلك بالنسبة الى علم الحديث[٢٧]. ثم ذكر انه وقف على كتاب لشيخه ابي عبدالله محمد بن سليمان الكافيجي «ت ٨٧٩هـ» في علوم التفسير، قال عنه السيوطي: فاذا هو صغير جداً[٢٨]. ثم ذكر انه وقف على كتاب لقاضي القضاة جلال الدين عبدالرحمن بن عمر البلقيني «ت ٨٢٤هـ» اسمه «مواقع العلوم من مواقع النجوم» قال عنه السيوطي بأنه مختصر يحتاج الى

تحرير وتتمات وزوائد مهمات. ثم قال. فصنفت في ذلك كتاباً سميته «التحبير في علوم التفسير» ضمنته ما ذكر البلقيني من الانواع مع زيادة مثلها، واضفت اليه فوائد سمحت القريحة بنقلها[29].

ويبدو ان السيوطي استقل ماكتبه في كتاب «التحبير» فقال: «ثم خطر لي بعد ذلك ان أؤلف كتاباً مبسوطاً، ومجموعا مضبوطاً، أسلك فيه طريق الاحصاء، وأمشي فيه على منهاج الاستقصاء، هذا كله وانا اظن اني متفرد بذلك، غير مسبوق بالخوض في هذه المسالك. فبينما انا اجيل في ذلك فكراً، اقدم رجلاً واؤخر اخرى اذ بلغني ان الشيخ الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، أحد متأخري اصحابنا الشافعيين: ألف كتاباً في ذلك حافلاً يسمى «البرهان في علوم القرآن»، فتطلبته حتى وجدته.... ولما وقفت على هذا الكتاب ازددت به سروراً، وحمدت الله كثيراً، وقوى العزم على ابراز ما أضمرته، وشددت الحزم في انشاء التصنيف الذي قصدته، فوضعت هذا الكتاب العلي الشأن الجلي البرهان، الكثير الفوائد والاتقان، ورتبت انواعه ترتيباً أنسب من ترتيب البرهان وأدمجت بعض الانواع في بعض، وفصلت ماحقه ان يبان، وزدته على مافيه من الفوائد والفوائد، والقواعد والشوارد مايشنف الاذان. وسميته بالاتقان في علوم القرآن»[30]، ثم ذكر السيوطي الانواع التي ذكرها في الكتاب، فبلغت ثمانين نوعاً، وذكر بعدها اسماء الكتب التي اعتمد عليها في تأليف الكتاب.

ولايزال كتابا «البرهان» للزركشي، و«الاتقان» للسيوطي اكبر كتابين ألفا في علوم القرآن الكريم الى وقتنا، وعليهما يعتمد الباحثون في الموضوع اكثر من غيرهما، وقد تميزا بأمور منها:

- الاستيعاب للموضوعات التي تتصل بالقرآن الكريم من كل ماتكلم عنه العلماء الذين سبقوا الزركشي والسيوطي في هذا الميدان.

٢ ـ التبويب، فقد سار المؤلفان على خطة واضحة في ترتيب الكتابين بيناها في مقدمة الكتابين.

---

(٢٩) الاتقان ١/ ٦

(٣٠) الاتقان ١/ ١٠ ـ ١٤

٣ ـ يـذكر المؤلفـان في بدايـة الكلام عـلى أي موضـوع الكتب المصنفة في ذلـك الموضوع، وهو امر مفيد جداً للدارسين في تتبع تطور التأليف في الموضوع الواحد.

٤ ـ ينقل المؤلفان عن كتب متنوعة كثيرة مما ألف في علوم القرآن حتى عصرهما «الـزركشي ت٧٩٤هـ والسيـوطي ت٩١١هـ وكثـير من تلـك المؤلفـات لايـزال مخطوطاً، وبعضها يعدّ اليوم مفقوداً، ولولا تلك النقول لما عرفنا من مادتها شيئاً.

وكتب كبيرة بحجم كتاب «البرهان» وكتاب «الاتقان» لايمكن ان تخلو من بعض جوانب القصور، ومما يؤخذ على كتاب «الاتقان» خاصة ان السيوطي يورد بعض الروايات الضعيفة أحياناً دون التنبيه عليها وبيان بطلانها[٣١].

تلك هي اهم كتب علوم القرآن التي عالجت الموضوع معالجة عامة شاملة حتى عصر السيـوطي، وينبغي ان نشير هنـا الى ان كثيراً من كتب التفسـير تتضمن مقدمات تتعلق بعلوم القرآن».

وقد كتبت في العصر الحديث عدة كتب بعضها يعالج موضوعات معينة من علوم القرآن، وبعضها يتناول الموضوع بشكل عام، بأسلوب لا يبتعد عن الصورة التي يعرضها الزركشي والسيوطي مع ميل الى سهـولة العبـارة والايجاز والاختصـار واعادة تبويب بعض الموضوعات بحيث تبدو أكثـر قربـاً من القارىء المعـاصر، ويمكنك ان ترجع الى قائمة المصادر في آخـر هذا الكتـاب لتعرف بعضـاً من تلك المؤلفات الحديثة.

---

(٣١) انظر: محمد محمد ابو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم ص٤٠.

ثانياً ـ اسماء القرآن واوصافه:

لم يترك الدارسون جانباً يتعلق بالقرآن الكريم إلا درسوه واستقصوا كل ما يتعلق بـه، ومن مظاهـر ذلك الحـديث عن أسماء القـرآن والبحث عن معانيها واشتقاقها، ومن المناسب ونحن بصدد دراسة تاريخ القرآن وعلومه ان نتعرف على تلك الاسماء ونقف على معانيها.

سَمَّى الله سبحانه وتعالى كلامه الذي انزله عـلى النبي محمد صـلى الله عليه وسلم بأسماء تضمنتها آيات من القرآن العظيم، قال الامام ابو جعفر محمد بن جرير الطبري «ت ٣١٠هـ» في تفسيره[٣٢] ان الله ـ تعالى ذكره ـ سَمَّى الذي انزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم اسماء أربعة: القرآن، والفرقان، والكتـاب، والذكر.

وقد وردت هذه الاسماء في آيات كثيرة لا يتسع المكان لذكرها، وانما نورد منها أمثلة تدل على ماذكرناه. قال الله تعالى:
«انا نحن نَزَّلنا عليك القرآن تنزيلاً» «الانسان ٢٣».
«تبارك الذي نَزَّلَ الفرقان على عبدهِ ليكون للعالمين نذيراً» «الفرقان١».
«الحمدُ للّه الذي أنزل على عبدهِ الكتاب ولم يجعل له عِوَجا» «الكهف١».
«وأنزلنا اليك الذكـرَ لتبين للنـاس مانُـزِّلَ اليهم ولعلهم يتفكرون» «النحـل ٤٤»
وينفرد لفظ «القرآن» من بين تلك الاسماء بكونه اسماً علماً حيثما اطلق انصرف الذهن الى كلام الله المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم دون سواه. أما «الكتاب، والفرقان، والذكر» فانها سُمِّيَ بها القرآن مثلما سُمِّيَ بها كثير مما انزله الله تعالى على انبيائه من قبل، تأمل هذه الآيات الكريمة تجد ذلك واضحاً: قال تعالى «فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة» «النساء ٥٤».

وقال: «ولقد آتينا موسى الكتاب، لعلهم يهتدون» «المؤمنون٤٩». وقال: «ولقـد آتينا موسى وهارون الفرقانَ وضياءً وذِكراً للمتقين» «الانبياء ٤٨».

---

(٣٢) انظر الطبري: جامع البيان ١/٤١ ـ ٤٢.

واشتراك القرآن في التسمية مع ما انزله الله على بعض الانبياء عليهم السلام فيه اشارة الى وحدة المصدر، كما فيه اشارة الى وحدة الموضوع والهدف، فهي كلها وحي من الله تعالى، أنزله على رسله المصطفين من عباده، لدعوة الناس الى دين الاسلام وهدايتهم الى طريق الحق والخير وصرفهم عن سبل الكفر والضلال. غير ان القرآن جاء خاتمة تلك الكتب ومهيمناً عليها، مثلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، والاسلام الدين الحق دون غيره، قال تعالى: «ان الدين عند اللّه الاسلامُ» «آل عمران ١٩».

وقال: «ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو في الآخرَةِ من الخاسِرين» «آل عمران ٨٥».

وقد ذكر بعض العلماء مع تلك الاسماء الاربعة الفاظاً اخرى، وعدها اسماء للقرآن.

فقال ابو المعالي عُزَيْزَى بن عبد الملك المعروف بشيذلة «ت ٤٩٤هـ»، في كتابه «البرهان في مشكلات القرآن»[33]: «اعلم ان الله تعالى سمي القرآن بخمسة وخمسين اسماً...»، ثم ذكر الآيات التي تضمنتها. وذكر الزركشي ان الحَرَاليَّ «ابو الحسن علي بن احمد التجيبي ت٦٣٧هـ» صنف في ذلك جزءاً وانهى اساميه الى نيف وتسعين، ولم يذكرها الزركشي[34].

ويجب علينا ان نفرق في هذا الصدد بين ما جاء من تلك الالفاظ على أنه اسم، وما ورد على أنه وصف[35]. فان معظم ما ذكره ابو المعالي من الفاظ ورد في القرآن في سياق الوصف، مثل: نور، وشفاء، وموعظة، وهدى، ومبارك، وتنزيل، وبصائر، وبشرى، وغير ذلك[36]. فهذه الالفاظ وما شابهها أوصاف وصف الله بها القرآن. وليست اسماء مثل لفظ القرآن.

---

(٣٣) انظر الزركشي: البرهان ١/٢٧٣ والسيوطي الاتقان ١/١٤٣.

(٣٤) البرهان ١/٢٧٣.

(٣٥) الزرقاني مناهل العرفان ١/٨.

(٣٦) انظر الآيات التي وردت فيها هذه الالفاظ عند الزركشي البرهان ١/٢٧٣ وما بعدها، والسيوطي ١/١٤٣ وما بعدها.

وهذه الالفاظ التي سمي بها القرآن الكريم لم تنقطع صلتها بمعانيها اللغوية، ولا نزال نلمح الصلة بين المعنى اللغوي لتلك الالفاظ وبين ما استخدمت فيه.

فالكتابة تعني رسم الحروف، وفي اصل اللغة، كل ما ضممت بعضه الى بعض على جهة التقارب والاجتماع فقد كتبه. ومنه قيل كتبت الكتاب لانه يجمع حرفاً الى حرف[٣٧].

وتسمية القرآن بالكتاب من تسمية المفعول بالمصدر، لان «الكتاب في الاصل مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتاباً»[٣٨].

وتسمية القرآن بالكتاب اما باعتبار ما كان عليه قبل انزاله، على نحو ما جاء في هذه الآيات الكريمة: «بل هو قرآنٌ مجيدٌ في لوحٍ محفوظ» «البروج ٢١ ـ ٢٢»، «انه لقرآن كريم في كتابٍ مكنونٍ» «الواقعة٧٨»، «وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» «الزخرف»[٣٩]: وباعتبار ما سيكون عليه بعد انزاله، لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته[٤٠].

ولفظ «الفرقان» مصدر مأخوذ من: فرق بين الشيئين يفرق فرقاً وفرقاناً، أي فصل وميز، لان القرآن مفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام[٤١]. وهو من تسمية الفاعل بالمصدر، لان «الفرقان» مصدر مثل «الفرق»[٤٢]. ولعل زيادة الالف والنون على بناء الكلمة فيه توكيد للمعنى، لان الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى غالباً.

و«الذكر» مصدر من ذكر الشيء يذكره، ومعناه في اللغة: الحفظ للشيء وجَريُ الشيء على اللسان، والذكر ايضاً الشرف والفخر، اما تسمية القرآن به فقد قال عنها الطبري[٤٣]:

---

(٣٧) ابن منظور: لسان العرب مادة «كتب». والزجاج: معاني القران واعرابه ١/ ٤٤.
(٣٨) الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص٤٢٣.
(٣٩) انظر الطبري: جامع البيان ٢/ ١٤٤ و٣٠/ ١٤٠، والرازي: التفسير الكبير ٣١/ ١٢٤.
(٤٠) انظر العز بن عبدالسلام: الفوائد ص٢٦.
(٤١) ابن منظور لسان العرب مـ «فرق». والزجاج: معاني القرآن واعرابه ١/ ١٠٤
(٤٢) الزرقاني: مناهل العرفان ١/ ٧.
(٤٣) الطبري : جامع البيان ١/ ٤٤.

«واما تأويل اسمه الذي هو «ذكر» فانه محتمل معنيين: احدهما: انه ذكر من الله ـ جل ذكره ـ ذكر به عباده، فعرَّفهم فيه حدوده وفرائضه وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: انه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه، كما قال جل ثناؤه «وانه لذكر لك ولقومك» «الزخرف ٤٤»، يعني به انه شرف له ولقومه.

أما لفظ القرآن فقد جاءت له صورتان في النطق، في قراءة القرآن[٤٤]، وفي لغة العرب، لان أحد حروفه الهمزة، والهمزة حرف مستثقل لانه بعيد المخرج في الحلق[٤٥]، فتصرفت به العرب بسبب ذلك على اشكال. فكان منهم جماعة يحققون الهمزة في كل موضع، وجماعة يسهلونها في غير اول الكلمة، على تفصيل موضعه كتب اللغة والقراءة فجاءت الكلمة «القرآن» بسبب ذلك صورتان في النطق، الاولى بتحقيق الهمزة القُرءان، والثانية باسقاطها «القرآن».

ويذهب اكثر العلماء الى ان لفظ «القرآن» مشتق من «قرأ»[٤٦] سواء أكان بتحقيق الهمزة ام باسقاطها. وقد انكر الزجاج «اب اسحاق ابراهيم ابن السري ت٣١١هـ» ان يكون «القرآن» مشتقاً من «قرن»، كما ينسب ذلك الى ابي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري «ت٣٢٤هـ»[٤٧]. او من «القرائن جمع قرينة» كما ينسب ذلك الى ابي زكريا يحيى بن زياد الفراء «ت٢٠٧هـ»[٤٨]. وقال[٤٩]: «هذا القول سهو والصحيح ان ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة الى الساكن قبلها».

---

(٤٤) قرأ عبد الله بن كثير كلمة «القران» معرفاً ومنكراً، بنقل حركة الهمزة الى الساكن قبلها مع حذفها وصلاً ووقفاً. وبه وقف حمزة «انظر البنا الدمياطي. اتحاف فضلاء البشر ص١٥٤».

(٤٥) سيبويه: الكتاب ٢/١٦٧، وابن يعيش: شرح المفصل ٩/١٠٧ و١٠/١٢٤.

(٤٦) قال الامام محمد بن ادريس الشافعي: قرات القرآن على اسماعيل بن قسطنطين وكان يقول: القرآن اسم وليس مهموزاً، ولم يؤخذ من قرات، ولو اخذ من قرات لكان كل ما قرىء قرآناً، ولكنه اسم للقرآن، مثل التوراة والانجيل..» «انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٢/٦٢، والزركشي: البرهان ١/٢٧٧، والسيوطي: الاتقان ١/١٤٦، وابن منظور: لسان العرب مادة «قرا» وهذا القول نسب في بعض المصادر الى الامام الشافعي، وانما هو لاستاذه في القراءة اسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، «انظر ابن الجوزي: غاية النهاية ١/١٦٥».

(٤٧) الزركشي: البرهان ١/٢٧٨، والسيوطي: الاتقان ١/١٤٦.

(٤٨) المصدران السابقان.

(٤٩) السيوطي: الاتقان ١/١٤٦.

واذا كان لفظ «القرآن» مأخوذ من «قرأ». فأن قسماً من الدارسين يذهب الى انه مأخوذ من «قرأ» بمعنى «جمع»، لان العرب تقول: قرأت الشيء قرآناً، اذا جمعته وضممت بعضه الى بعض[50]. قال ابو عبيدة: سمي القرآن قرآناً لانه جمع السور بعضها الى بعض[51]، ونقل الراغب الصفهاني ان بعض العلماء قال: سمي قرآناً لكونه جمع ثمرة كتب الله المنزلة من قبل، ولجمعه ثمرة جميع العلوم[52].

ويذهب قسم من العلماء منهم العالم اللغوي المشهور اللحياني «ابو الحسن علي بن حازم ت٢١٥هـ» الى ان القرآن مأخوذ من «قرأ» بمعنى «تلا» وهو مصدر كالرجحان والغفران، سمي به الكتاب المقروء، من باب تسمية المفعول بالمصدر[53].

ويؤكد هذا الرأي تفسير عبد الله بن العباس رضي الله عنه لكلمة «قرآنه» الواردة في قوله تعالى «لا تُحَرِّكْ به لسانَكَ لِتَعْجَلَ به. إنَّ علينا جَمْعَهُ وقرآنَهُ. فاذا قرأناه فاتَّبِع قُرآنَهُ. ثم إنَّ علينا بَيَانَهُ» «القيامة ١٦ ـ ١٩». فقد ذكر البخاري ان ابن عباس فسر «قرآنه» بمعنى ان تقرأه او قراءته[54]. أي إن «قرآن» مصدر من قرأ.

وقد أخذ الطبري بهذا الراي. فقال في تفسيره[55]: «فأما القرآن فان المفسرين اختلفوا في تأويله، والواجب ان يكون تأويله على قول ابن عباس من التلاوة والقراءة، وان يكون مصدراً من قول القائل قرأت القرآن، كقولك الخسران من خسرت، والغفران من غفر الله لك..».

ويتضح من هذا ان استعمال تلك الالفاظ اسماء لما انزله الله تعالى من كلامه على النبي محمد صلى الله عليه وسلم من باب تسمية الشيء ببعض خواصه وصفاته، فقد «روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالالسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالاقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع

---

(٥٠) ابن منظور: لسان العرب مادة «قرأ».
(٥١) ابو عبيدة: مجاز القرآن ١/١ و١٨.
(٥٢) الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص٤٠٢، وانظر الزركشي، البرهان ٢٧٧/١.
(٥٣) السيوطي: الاتقان ١٤٦/١ ـ ١٤٧.
(٥٤) البخاري: الجامع الصحيح ٦/١، وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ١٩٨/١.
(٥٥) الطبري: جامع البيان ٤٢/١.

عليه»[٥٦]. وكذا تسميته بالفرقان والذكر، او وصفه بالصفات التي اشرنا اليها من قبل، فيه إشارة الى اشتمال القرآن على المعاني التي توحي بها تلك الاسماء والصفات.

★★★

ويدّعي بعض المحدثين ان العرب ـ قبل الاسلام ـ لم يعرفوا «قرأ» بمعنى تلا ولا «كتب» بمعنى رسم الحرف، ولا «فرق» بمعنى التفريق، وانما اخذوا هذه المعاني من الآرامية «احدى اللغات السامية» لوجود تلك الكلمات في هذه اللغة بنفس المعاني[٥٧]، تأكيداً لاحتمالات أطلقها بعض المستشرقين، على سبيل الظن لا اليقين[٥٨].

وأدنى تأمل في هذه المسألة يكشف عن عدم موضوعية وعلمية مثل هذا القول: تأمل قول الله تعالى: «انا انزلناه قرآناً عربياً» «يوسف٢»، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن في اكثر من موضع، مصداقاً لقوله سبحانه: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم». «ابراهيم٤». فالقرآن منزل باللغة العربية على النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كانت لغته ولغة قومه العربية.

ومن ثم فان القول بان كلمات «القرآن، والكتاب، والفرقان» ترتد بمعانيها التي استخدمت بها في القرآن الى أصل آرامي ـ قول يحتاج الى دليل اكيد.

ومن سنن الله في الحياة ان اللغات الانسانية ـ لاشك ـ يتأثر بعضها ببعض، لكن ذلك التأثر والتأثير له مؤشرات تدل عليه، فمتى ثبت ان لغة ما استخدمت «كلمة» ثم استعارتها منها لغة اخرى، لم تعرف عندها تلك الكلمة من قبل، نقول ان تلك اللغة أثرت في هذه.

ولا ثبات ان اللغة العربية اخذت قرأ بمعنى تلا، وكتب بمعنى رسم الحروف، وفرق بمعنى التفرقة، من الآرامية ـ يجب ان يقوم دليل قاطع على ان العرب لم

---

(٥٦) محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم ص١٢.

(٥٧) ذهب الى ذلك د. صبحي الصالح «انظر مباحث في علوم القرآن ص١٧. ص٢٠».

(٥٨) انظر مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص٢٠ وبلاشير: كتاب القرآن ص٢٢ حيث يقول عن كلمة «القرآن» بمعنى التلاوة «ويمكن ان تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية التي يرد فيها لفظ مشابه جداً هذا المعنى».

تستخدم هذه الكلمات بمعانيها تلك قبل الاسلام، وهذا يحتاج الى استقراء كلام العرب الجاهليين، من شعر ونثر، مما وصلنا منه لنتعرف منه على ذلك فهو الطريق الوحيد الممكن في هذا المجال.

وبما ان مثل ذلك الاستقراء، غير متيسر للدارسين الان، فليس من الموضوعية في شيء اطلاق القول بأخذ العربية لمعاني الكلمات المذكورة من الآرامية، للاسباب التالية:

١ ـ ان اللغة العربية والحبشية والآرامية والكنعانية والاكدية لغات يسميها الدارسون اليوم بأسم «اللغات السامية»، على اساس انها ترجع الى اصل واحد، لما فيها من عناصر لغوية متشابهة في الاصوات والمفردات والتراكيب، ووجود كلمات متقاربة النطق والمعنى في هذه اللغات لا يعني ان بعضها أخذ من بعض بقدر ما يدل على ان هذه اللغات ترجع الى اصل قديم مشترك. وهذا الكلام لا ينفي التأثر اللغوي عند قيام الدليل عليه.

ويجب ان يذكر في هذا الصدد ان اللغة العربية تحتفظ بعناصر لغوية قديمة لم تحتفظ عليها اللغات السامية الاخرى، باعتراف المستشرقين انفسهم[٥٩].

٢ ـ عرف العرب قبل الاسلام «كتب وقرأ وفرق، بمعان مقاربة لمعانيها المشار اليها من قبل، ان لم يكونوا استخدموها بنفس المعاني المذكورة، خاصة انهم عرفوا الكتابة والقراءة منذ قرون سابقة للاسلام[٦٠].

٣ ـ وردت كلمة «قرأ» بمعنى تلا، ومشتقاتها، في القرآن الكريم خمساً وثمانين مرة، وأول كلمة انزلت من القرآن هي «إقرأ» من القراءة. بمعنى التلفظ او التلاوة، كذلك وردت كلمة «كتب» بمعنى رسم الحروف ومشتقاتها، في القرآن، اكثر من ثلاثمائة مرة، ووردت كلمة «فرق» ومشتقاتها اكثر من ثمانين مرة.

افلا يكفي ذلك دليلاً على شيوع هذه الكلمات في لغة العرب قبل الاسلام؟

والا يدل ذلك على معرفتهم معانيها؟ والا فكيف يخاطبهم القرآن بها؟ وانما انزل للتبليغ والبيان.

---

(٥٩) نولدكه: اللغات السامية ص١٣ ـ ١٤

(٦٠) انظر مواد الكلمات المذكورة في لسان العرب لابن منظور.

الفصل الأول
نزول القرآن الكريم

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن حياة النبي قبل البعثة

عاش محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام منذ ولادته في مكة - في شهر ربيع الاول من عام الفيل «٥٧١م»[٦١] - حتى بلغ الاربعين، عيشة لا تكاد تختلف عن حياة اهل مكة في ذلك الزمان، فلم يعرف عنه شيء من غريب الامور، ولم يدع هو شيئاً من ذلك، بل أسهم في تلك الحياة وعاشها، فقد رعى الغنم وهو شاب يتيم يعيش في كنف عمه ابي طالب[٦٢]، وصحب عمه الى الشام في تجارة، وهو ابن اثنتي عشرة سنة[٦٣]، وحضر حرب الفجار التي وقعت في اطراف مكة، بعد عام الفيل بعشرين سنة[٦٤]. وحضر حلف الفضول الذي عقد بعد حرب الفجار بقليل[٦٥] وعمل في التجارة بأموال السيدة القرشية خديجة بنت خويلد، وهو ابن خمس وعشرين سنة[٦٦]، وتتوجت تلك الصلة بزواجه من السيدة خديجة[٦٧]. وأثمر ذلك الزواج بيتاً سعيداً وانجب أربع بنات: زينب، ورقية، وفاطمة، وام كلثوم، وابنين: القاسم وعبد الله[٦٨]. وأسهم بحكمته وهو في الخامسة والثلاثين في فض النزاع الذي نشب بين قبائل قريش حين أعادوا بناء الكعبة المشرفة.[٦٩].

وهكذا عاش بين اهل مكة حتى بلغ الاربعين، ولم يطرأ على حياته شيء غير مألوف، ولكن كان هناك شيء واحد يختلف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

---

(٦١) ابن سعد الطبقات الكبرى ١/ ١٠٠ - ١٠١، وانظر محمد عبدالله دراز: مدخل الى القرآن الكريم ص٢٢.

(٦٢) ابن سعد : الطبقات ١/ ١٢٥.

(٦٣) المصدر نفسه ١/ ١٢١.

(٦٤) المصدر نفسه ١/ ١٢٨.

(٦٥) المصدر نفسه ١/ ١٢٨

(٦٦) المصدر نفسه ١/ ١٢٩

(٦٧) المصدر نفسه ١/ ١٣١

(٦٨) المصدر نفسه ١/ ١٣٣

(٦٩) المصدر نفسه ١/ ١٤٥

اهل مكة، في أثناء حياته قبل البعثة وقبل نزول القرآن عليه، وهو اجتنابه مظاهر الانحراف الخلقي والديني والاجتماعي الذي كان فيه اهل مكة في تلك الحقبة، فقد عاش قبل البعثة كما وصفه ابن سعد: «شب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ابي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من امور الجاهلية ومعايبها ولما يريد به من كرامته، وهو على دين قومه، حتى بلغ ان كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، واحسنهم جواراً، واعظمهم حلماً وامانة، واصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والاذى ومارُئي مُلاحياً ولا ممارياً احداً، حتى سماه قومه الامين، لما جمع الله له من الامور الصالحة فيه، فقد كان الغالب عليه بمكة الامين»[70].

وبعد ان قارب الاربعين من عمره حدث في حياته ما قلب تلك الطمأنينة الى مكابدة ومجاهدة، وذلك الوئام الاجتماعي الى عداوة ومحاربة، على غير توقع منه لذلك الحدث، ومن غير اعداد، ذلك الحدث الذي أثر في حياته وحياة اهل مكة والعرب والناس أجمعين، هو نزول القرآن الكريم عليه، فكيف كانت بداية ذلك الحدث العظيم؟

المبحث الثاني: كيف ابتدأ نزول القرآن؟

تعطينا الروايات التاريخية والاحاديث الصحيحة المروية وصفاً كاملاً لبدء نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقل البخاري في الجامع الصحيح[71] وغيره من المصادر المعتمدة[72]، عن محمد بن شهاب الزهري «ت١٢٤هـ». عن عروة بن الزبير «ت٩٣هـ على خلاف». عن عائشة ام المؤمنين «ت٥٧هـ» انها قالت:

---

(٧٠) المصدر السابق ١/ ١٢١.

(٧١) صحيح البخاري ١/ ٥.

(٧٢) وردت هذه الرواية في اصح كتب الحديث والتاريخ، في الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ١٩٤، والسيرة النبوية لابن هشام ق١/ ٢٣٤، والمصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني ٥/ ٣٢١، وصحيح البخاري ١/ ٥ و٦/ ٢١٤، والفتح الرباني في ترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني ٢٠/ ٢٠٧، وصحيح مسلم ١/ ٩٧، وتاريخ الرسل والملك للطبري ٣/ ١١٤٦.

«كان اول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة «أو الصالحة» في النوم. فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، قالت: فمكث على ذلك ما شاء الله، وحُبِّبَ اليه الخلوة فلم يكُن شيء أحب اليه منها، وكان يخلو بغار حراء فيتحَنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل ان يرجع الى اهله فيتزود لمثلها. حتى فَجِئَهُ الحق وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ[٧٣]، قال: ما انا بقارىء، قال: فأخذني فغطَّني[٧٤] حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما انا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ، فقلت: ما انا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: «اقرأ بأسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الانسانَ من عَلَقٍ، اقرْأ وَرُبكَ الأكرمُ، الذي عَلَّمَ بالقلم، عَلَّمَ الانسانَ ما لم يَعلمْ». فرجع بها الرسول صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني[٧٥]، حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة واخبرها الخبر، لقد خشيت علي نفسي فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله ابداً، انك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد عبدالعزى، ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء ان يكتب[٧٦]، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: ياابن عم، اسمع من ابن اخيك، فقال له ورقة يا ابن اخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله لى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[٧٧]

---

(٧٣) قوله «اقرأ» لا يعني حتماً ان جبريل عرض على رسول الله شيئاً مكتوباً، كما روى ذلك ابن اسحق مرسلاً. فجاءني جبريل، وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب»، «ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٣٦»، فلعل قوله «اقرأ» كان تنبيهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما سيلقى عليه، فيكون ذلك طلباً بقراءة ما سيلقى عليه من القرآن، «انظر تفصيلاً لذلك: محمد عبدالله دراز: المختار من كنوز السنة النبوية ص٢١».

(٧٤) الغط: العصر الشديد والكبس «لسان العرب مادة غطط».

(٧٥) زملوني معناه: دثروني «انظر فتح الباري ١/ ٢٤».

(٧٦) جاء في رواية ان ورقة كان يكتب الكتاب العبراني، وفي اخرى الكتاب العربي ولا تنافي بين الروايتين، «لان ورقة تعلم اللسان العبراني والكتابة العبرانية، فكان يكتب الكتاب العبراني، كما كان يكتب الكتاب العربي»، «انظر ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٥».

(٧٧) الناموس: صاحب سر الوحي: والمراد به جبريل عليه السلام «انظر لسان العرب مادة نمس، وعمدة القارىء العيني ١/ ٥٢».

الذي نزل الله على موسى ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قـومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَ مُخـرِجيَّ هُم؟ قال: نعم لم يـأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عُودِيَ، وان يدركْنِي يومُكَ أنصرُكَ نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة ان توفي، وفتر الوحي».

وتشير هذه الرواية الى ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يجابهه الملـك من غير ممهدات نفسية تهيئة لتحمل اثر ذلك اللقاء غير الاعتيادي بين عالم البشر وعالم الروح. فكانت اولى علامات النبوة الرؤيا الصادقة، حيث يتحقق في النهار ما يراه في نومه ليلاً، بحذافيره، واضحاً مثل طلوع الفجـر من جهة المشرق، حـين يسفر الصباح، ولا شك في ان هذه الحالة قد لفتت نظر النبي وأثارت انتباهه. ولا تحدد الرواية الفترة التي استمرت فيها هذه الحالة [٧٨].

والخطوة الثانية باتجاه النبوة الكاملة هي الخلوة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد ميلاً في نفسه الى الانفراد والابتعاد عن ضجيج الحياة والنـاس ووجد ان خير مكان مناسب لذلك كان في الجبال المجاورة لمكة في غار حِرَاء[٧٩]. فكان يمكث هناك الليالي الكثيرة، ولا تحدد الرواية مقدارها، يتفكر ويتأمل ويتعبد على صورة لا تحددها الرواية ايضاً.

وبينما كان على تلك الحال، وهو في غار حراء واجهه الملك الامين جبريـل عليه السلام باللقاء، ولم يُلق اليه اول آيات نزل بها القرآن الا بعد ان هيأ نفسه بذلك الغط ـ العصر الشديد ـ الذي كان يجهده. ولا عجب ان تشير الرواية الى ان النبي صلى الله عليه وسلم رجع الى بيته وفؤاده يرجف ونفسه خائفة فان هول المفاجأة وشدة الموقف لتذهب بالالباب ولكن «الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسـالته»».

---

(٧٨) حكى البيهقي ان مدة الرؤيا كانت ستة اشهر. «انظر ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٧».

(٧٩) حراء ـ بالمد وكسر الحاء، جبل من جبال مكة على ثلاثة اميال، في اعلاه قلة شامخة زلوج، وفيه الغار الذي كان يأوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ «انظر ياقوت ـ معجم البلدان ٢/ ٢٢٣». ويسمى ذلك الجبل اليوم ـ بجبل النور «انظر كتاب: من نفحات الحرم، لعلي الطنطاوي ص١٣٨ ومدخل الى القرآن لمحمد عبد الله دراز ص٢٧، وانظر وصفاً ممتعاً للجبل والغار في كتاب «في منزل الوحي» لمحمد حسـين هيكل ص٢٤٢ وما بعدها وكتاب «من نفحات الحرم» لعلي الطنطاوي ص١٢٧ وما بعدها.

وهكذا كانت الآيات الاولى من سورة العلق «١ ـ ٥» أول ما انزل من القـرآن، وقد قال ابن سعد في رواية نقلها بأسناده[٨٠]: «نزل الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء، يوم الاثنين، لسبـع عشر خلت من شهر رمضــان، ورسول الله يومئذ ابن اربعين سنة، وجبريل الذي كان ينزل عليه بالوحي».

المبحث الثالث: فتور الوحي:

ورد في اخر الرواية السابقة لابتداء نـزول القرآن ان الـوحي فتر بعـد اللقاء الاول. فكان ذلك مما يقلق النبي صلى الله عليه وسلم وقد صوَّر ابن سعد ذلك في هذه الرواية[٨١]: «أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني ابراهيم بن محمـد بن أبي مـوسى، عن داود ابن الحصين، عن ابي غطفـان بن طريف، عن ابن عبـاس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه بحراء مكث اياماً لايرى جبريل، فحزن حزناً شديداً. حتى كان يغدو الى ثبير مرة والى حراء مرة يريد ان يلقي نفسه منه، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم صعقاً للصوت ثم رفع رأســه فاذا جبريل يقول: يامحمد انت رسول الله حقاً وانا جبريل، قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينـه وربط جأشـة، ثم تتابـع الوحي بعـد وحَمِيَ».

وينقل البخاري الرواية بتفصيل آخر. على هذا النحو[٨٢]: «قال ابن شهاب:
وأخبرني ابو سلمة بن عبدالرحمن ان جابر بن عبدالله الانصاري قـال وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حـديثه· بينمـا انا امشي اذ سمعت صـوتاً من السماء، فرفعت بصري، فاذا الملك الـذي جاءني بحـراء جالس عـلى كرسي بـين

---

(٨٠) الطبقات الكبرى ١/ ١٩٤ وانظر ايضاً ١/ ١٩٠ ـ ١٩١ والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١١٤٣.

(٨١) الطبقات الكبرى ١/ ١٩٦ وانظر الساعاتي: الفتح الرباني ٢٠/ ٢٠٩ والطبري: تاريخ الرسـل والملوك ٣/ ١١٥٥ ونقل البخاري هذه الرواية مختصرة في باب تعبير الرؤيا، عن الزهري، «انظر ابن حجر: فتح الباري ١٢/ ٣٥٢».

(٨٢) صحيـح البخاري ١/ ٦ و٦/ ٢١٥. وانظـر: صحيح مسلم ١/ ٩٨، والطبـري: تاريـخ الرسـل والملـوك ٣/ ١١٥٥

السماء والارض، فرُعبْتُ منه، فرجعت فقلت زملوني، فدثـروه، فانـزل الله تعالى: «ياايها المدثر قم فأنذِرْ، وربُك فَكبر، وثيـابَكَ فَطهـرْ، والرُّجْـزَ فاهجـرْ، ثم تتابـع الوحي».

ولا تحدد روايات فتور الوحي المدة التي كانت بين نزول اول سورة العلق ونزول اول سورة المدثر، ويبدو انها لم تطل كثيـراً، ففي رواية البخـاري «وفتر الـوحي فترة، حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم[83] وفي طبقات ابن سعد «لما نزل عليه الوحي بحراء مكث اياماً لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً»[84]. وفي السيرة النبوية لابن هشام «قال ابن اسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من ذلك، حتى شق عليه فأحزنه»[85].

ونجد في بعض المصادر ان مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، اعتمـاداً على رواية عن الشعبي، تقول: «بُعِثَ لأربعين، ووكّلَ به اسرافيل ثلاث سنين، ثم وَكَّلَ به جبريل»[86]، ولكن هذه الرواية لا تتحدث عن فترة الوحي اولاً، ثم هي غير موثقة عند العلماء ثانياً، قال ابن سعد، بعد ان اورد الرواية من طريق داود بن أبي هند عن عامر[87]: «فذكرتُ هذا الحديث لمحمد بن عمر «يعني الواقدي استاذه» فقال: ليس يعرف اهل العلم ببلدنا ان اسرافيل قُرِنَ بـالنبي صلى الله عليـه وسلم وان علماءهم واهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل من حين انزل عليـه الوحي الى ان قبض صلى الله عليه وسلم.

وانقطاع الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم تلك المدة، فيه من تطمين نفس النبي واعدادها لتلقي القرآن العظيم وحمل أعبـاء الرسـالة، مـا كان في الـرؤيا الصادقة وفي الخلوةمن تهيئة النبي لذلك التحول في حياته. فقد ذهب في هذه الفترة ما وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الروع في لقاء غار حراء، وكذلك تشوق،

---

(٨٣) صحيح البخاري ٦/ ٢١٥.
(٨٤) الطبقات الكبرى ١/ ١٩٦، وانظر: ابن حجر: فتح الباري ١٢/ ٣٦٠.
(٨٥) السيرة النبوية: ١/ ٢٤١.
(٨٦) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٧ والعيني: عمدة القارىء ١/ ٦٢.
(٨٧) الطبقات الكبرى ١/ ١٩١، وانظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٢٤٩.

بعد ذهاب الروع عنه الى رؤية الملك مرة اخرى [88]. قال الحافظ ابن حجر [89]: «وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان وكان ذلك ليذهب ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التَّشَوُّفُ الى العَوْدِ...».

المبحث الرابع: كيف كان النبي يتلقى القرآن:

ان موضوع نزول الملك على النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن، والكيفية التي كان يأتيه بها من أمر الغيب الذي لا يعرف إلا من طريق القرآن أو الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ولايملك الانسان ان يقول فيه شيئاً إلا بدليل منقول، ولذلك سوف نناقش هذا الموضوع على ضوء ما جاء في القرآن وماثبت في الحديث الصحيح.

جاء في القرآن الكريم ان التلقي عن الله مباشرة ليس في مستطاع الانسان ومن ثم فان ايصال المعرفة الإلهية الى البشر يمكن ان يتحقق باحدى الطرق الثلاث التي تشير اليها الآية الكريمة «الشورى ٥١ ـ ٥٣»:

«وما كانَ لبشرٍ ان يُكلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحياً، أو من وراءِ حجابٍ أو يُرسلَ رسولاً فَيوحِيَ بإذنهِ ما يَشاءُ، إنه عليٌّ حكيمٌ. وكذلك اوحينا اليكَ رُوحاً مِنْ أمرنا ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ولكن جَعلناه نوراً نَهدي به من نشاءُ من عبادنا، وإنك لتهدي الى صراطٍ مستقيمٍ. صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض، ألا الى الله تصيرُ الامورُ».

ويقطع هذا النص القرآني بانه ليس من شأن انسان ان يكلمه الله مواجهة، انما يتم تكليم الله للبشر بواحدة من ثلاث:

١ ـ «وَحْياً» يُلقى في النفس مباشرة بالرؤيا الصادقة أو الالهام [90].

---

(٨٨) انظر العيني: عمدة القاريء ١/٦٢.

(٨٩) فتح الباري ١/٢٧.

(٩٠) جاء في مادة «وحي» في لسان العرب لابن منظور: واصل الوحي في اللغة كلها اعلام في خفاء، ولذلك صار الالهام يسمى وحياً وكذلك الاشارة والايماء يسمى وحياً، والكتابة تسمى وحياً، وانما سمي ما ينزل به الملك على النبي وحياً لان الملك اسره على الخلق وخص به النبي صلى الله عليه وسلم المبعوث اليه. اما الالهام فقد جاء في مادة «لهم» في لسان العرب

الالهام: ما يلقى في الرُّوع ـ بضم الراء المشددة ـ وهو ان يلقي الله في النفس امراً يبعث على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي. يخص الله به من يشاء من عباده

٢ ـ «أو من وراء حجاب» كما كلم الله موسى عليه السلام وحين طلب الرؤية لم يجب اليها، ولم يطق تجلي الله على الجبل «وخرَّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال: سبحانك تُبتُ اليك، وأنا أول المؤمنين»، «الاعراف ١٤٣».

٣ ـ «أو يرسل رسولاً» وهو الملك «فيوحي باذنه ما يشاء».

وقد اشارت الآية السابقة الى ان ما اوحاه الله الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما اوحاه الله الى الانبياء السابقين «كذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا»، فالوحي تم بالطريقة المعهودة، ولم يكن أمر هذا الوحي بدْعاً. ثم أكدت هذا المعنى آيات اخرى منها قوله تعالى: «أنا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده...» (النساء ١٦٣).

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم الكيفية التي يلقي بها الملك الوحي اليه، وشهد الصحابة حالة النبي صلى الله عليه وسلم لحظة التلقي ووصفوها، فمن ذلك مارواه ابن سعد عن عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا نزل عليه الوحي كُرِبَ له[٩١]. وربما نزل عليه الوحي، وهو على راحلته، فترغو وتفتل يديها حتى يظن ان ذراعها تنفصم، فربما بركت وربما قامت موتدة بيديها حتى يُسَرَّى عنه، من ثقل الوحي[٩٢].

وكان الصحابة يعرفون حالة النبي صلى الله عليه وسلم ساعة يوحى اليه ربما سمعوا أصواتاً عند وجهه، فقد رُويَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: «كان اذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي سمع عند وجهه كَدَوِيِّ النحل...»[٩٣].

ولم تكن تلك الشدة التي صاحبت نزول القرآن الكريم التحول دون وعي النبي صلى الله عليه وسلم لما يلقي اليه من القرآن، بل انه ليكون اكثر انتباهاً ووعياً في تلك اللحظة، حيث كان يتلو على الصحابة ما ينزل عليه من القرآن فور انقطاع الوحي، وقد سأله عبد الله بن عمرو بن العاص عن احساسه بالوحي حيث يقول [٩٤]: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هل تُحسُّ الوحيَ؟

---

(٩١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٩٧.

(٩٢) المصدر نفسه، والفتح الرباني ٢٠/٢١٢.

(٩٣) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف ٣/٢٨٣، الفتح الرباني ١٨/٢١٤

(٩٤) الفتح الرباني ٢٠/٢١١.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، اسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك..».

ولا يَدَعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مجالاً للشك في شدة يقظته ووعيه في لحظة تلقي القرآن من جبريل، كما في الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه[٩٥] «عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ان الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله كيف يأتيك الوحي؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احياناً يأتيني مثْلَ صَلصَلةِ الجَرَس، وهو اشده علي فَيَفْصِمُ عني وقد وَعَيْتُ ما قال، واحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول.

قالت عائشة رضي الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وان جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً».

ويتبين من هذا الحديث صورتان للوحي، وينبغي ان نلاحظ ان النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد في الحالتين جميعاً على مسألة الوعي الكامل لما يلقى اليه حيث يقول: «وقد وعيت ما قال، فأعي ما يقول».

والظاهر من الرواية ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعاني شدة من الوحي في الصورتين، وان كانت واحدة اشد من الاخرى، ويؤكد ذلك قول عائشة رضي الله عنها ففيه دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة، فان كثر العرق في اليوم الشديد البرد يُشْعِرُ بوجود امر طاريء زائد على الطباع البشرية حتى انه كان اذا جاءه الوحي وهو على ناقته بركت على الارض من ثقل ما يوحى اليه كما مر[٩٦].

ولاشك في ان الحالة التي يكون عليها النبي صلى الله عليه وسلم حين ينزل الوحي عليه أبعد ما تكون من حالة السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته الى النوم فانها كانت تعروه قائماً او قاعداً او سائراً او راكباً وبكرة او عشياً

---

(٩٥) صحيح البخاري ١/ ٤.

(٩٦) انظر فتح الباري ١/ ٢١

وفي اثناء حديثه مع اصحابه او اعدائه. وكانت تعروه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان، فكان اذا نزل عليه الوحي اخذته البُرَحَاء[٩٧] حتى يتفصد جبينه عرقاً، وثقل جسمه حتى يكاد يرض فخذه فخذ الجالس الى جانبه، وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه اصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل، لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم، ثم لايلبث ان تسرى عنه تلك الشدة فاذا هو يتلو قرآناً جديداً[٩٨].

وكما ان حالة تلقي الوحي تخالف حالة النوم كذلك هي تباين كلياً تلك الاعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه وتبرد الاطراف، وتصطك الاسنان وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل، لانها حالة كانت مبعث نمو في قوة البدن، واشراق في اللون، وكانت الى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته تتضاءل الانوار عند طلعته[٩٩].

ان التلقي عن الله، حتى ان كان بواسطة الملك، امر خارج على معهود الناس، انها لحظة عظيمة حقاً لحظة تلقي الذات الانسانية لوحي من الذات العلوية، انه امر عجيب لكنه حدث مرات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحس بحدوثه كثيرون رأوا مظاهره رأى العين، وكانت ثمرة ذلك اللقاء وذلك التلقي هذا القرآن العظيم الذي تلاه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس وحفظه الصحابة عنه وكتبوه ونقلوه الى الاجيال.

المبحث الخامس: حِفْظُ النبي للقرآن:

ان من الآيات الكثيرة الدالة على ربانية القرآن ان الله عز وجل قد مكن رسوله صلى الله عليه وسلم من حفظ القرآن دون استعانة بكتاب، وهو الامي الذي لم يقرأ

---

(٩٧) البرحاء: في اصل اللغة شدة الحمى، ويراد بها هنا شدة الكرب من ثقل الوحي «انظر: لسان العرب مادة برح».

(٩٨) محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم ص٧٠ ـ ٧١.

(٩٩) المصدر نفسه.

كتاباً، ولم يكتب قط[100]. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعجل - بادىء الامر - في حفظ القرآن، فيسابق جبريل وهو يلقي اليه القرآن ساعة الوحي، فيردد الآيات قبل ان ينتهي الملك من الوحي، مخافة ان ينسى منه شيئاً، وان ذلك مما يشق عليه، فجاء القرآن يطمئنه في اول الطريق، وينهاه عن تلك العجلة. قال الله تعالى: «وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً، وصَرَّفْنا فيه مِنَ الوعيدِ لعلهم يتقون، او يحدثُ لهم ذكراً، فتعالى الله الملكُ الحقُ ولا تعجَلْ بالقرآنِ من قبلِ ان يُقْضَى اليكَ وحيُه وقل ربِّ زِدْني علما» (طه١١٣ - ١١٤).

وجاءت آيات اخرى تؤكد ان حفظ القرآن مكفول للنبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى: « لا تحركْ به لسانكَ لتعجلَ به. إن علينا جمعَه وقرآنه. فاذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانَه» (القيامة ١٦ - ١٩).

وروى البخاري في صحيحه - في اكثر من موضع - تفسيراً لهذه الآيات، منقولاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه جاء فيه: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعالج «أي يعاني» من التنزيل شدة، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه، يخشى ان ينفلت منه، فأنزل الله «لاتحرك به لسانك لتعجل به. ان علينا جمعه وقرآنه». جمعه، ان نجمعه في صدرك» وقرآنه ان تقرأه. فاذا قرأناه فاتبع قرآنه»: فاذا انزلناه فاستمع وانصت. «ثم ان علينا بيانه»: ثم ان علينا ان نبينه بلسانك، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اذا أتاه جبريل استمع، فاذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل[101].

وهذه الآيات تؤكد امراً مهماً، هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن، وحياً وحفظاً وبياناً، واسناده اليه سبحانه بكليته، ليس للرسول صلى الله عليه وسلم من أمره الا وعيه وحمله وتبليغه[102].

---

(١٠٠) ان صفة الامية بالنسبة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ليست من النقائض بل هي من المعجزات فقد شاء الله ان يجعل نبيه امياً ليكون ذلك ابلغ في الدلالة على ان القرآن من الله تعالى، وليقطع كل شك او تقول يلهج به المعاندون، اذا زعموا ان النبي قرأ علوم الاقدمين، ودرس كتب الانبياء السابقين، ثم جاء بهذا القرآن من عند نفسه. وقد بين الله تعالى ذلك في القران بقوله الكريم. «وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك اذن لا رتاب المبطلون» (العنكبوت ٤٨).

(١٠١) صحيح البخاري ١/٦ و٦/٢٠٢ - ٢٠٣. وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٩٨ - ١٩٩ ومسلم: الجامع الصحيح ٢/٣٥. وابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٩ و٨/٦٨١ - ٦٨٢

(١٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢٩/ ٣٧٧٠.

والى جانب هذا الاستعداد الدائم الذي خُصَّ به النبي صلى الله عليه وسلم لحفظ القرآن فأن جبريل عليه السلام كان يدارس رسول الله ما نزل عليه في كل مرة كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن ابن عباس حيث يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلَرسول الله صلى الله عليه وسلم اجود بالخير من الريح المرسلة...»[١٠٣].

وكانت ثمرة ذلك التمكين لحفظ القرآن، وهذه المدارسة له بين رسول الله وجبريل ـ ان حفظ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم القرآن حفظاً لاحظَّ للنسيان فيه. قال مجاهد «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتذكر القرآن في نفسه، مخافة ان ينسّى، فقال الله عز وجل: «سنقرئك فلا تنسى» (الاعلى ٦)»[١٠٤]. فقرأ رسول الله القرآن على الصحابة، فكان بعضهم يكتبه وكان آخرون يحفظونه وأدوه الى من جاء بعدهم من اجيال المسلمين، وظل القرآن محفوظاً كما تلقاه الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا.

المبحث السادس: نزول القرآن منجماً:

لم ينزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كله مرة واحدة، فقد استمر نزول جبريل عليه السلام بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وعشرين سنة[١٠٥] فكان النبي يتلقى من القرآن في المرة الواحدة آية اوآيات او سورة كاملة[١٠٦].

ونزول القرآن مفرقاً على ذلك النحو يسميه العلماء تنجيم القرآن ويسمون الشيء النازل في المرة الواحدة نجماً، لان من معاني النجم في اللغة «الوقت المضروب» وقد قالت العرب: «نجَّمت اليه المال. اذا أديته نجوما». اي المرة بعد

---

(١٠٣) صحيح البخاري ١/٦.
(١٠٤) تفسير مجاهد ص٧٥٢.
(١٠٥) ابن حجر: فتح الباري ٧/٢٣٧
(١٠٦) انظر: احمد بن حنبل: المسند ١/٣٩٩ و٤٩٨.

الاخرى [١٠٧] قال أبو شامة[١٠٨]: «فلما قطع الله ـ سبحانه ـ القرآن. وأنزله مفرقاً. قيل لتفاريقه نجوم».

وقد أثار المشركون مسألة نزول القرآن جملة واحدة. كما توضح ذلك سورة الفرقان «آية ٣٢ ـ ٣٣».

«وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثلٍ الا جئناك بالحق واحسن تفسيراً.

واذا كان هذا هو الامر الثابت، فهل كان للقرآن نزول آخر قبل نزوله منجماً على النبي صلى الله تعالى صلى الله عليه وسلم نجد في هذا الصدد ثلاث آيات يشير اليها العلماء في هذا المجال، وهي كما يعرضها أبو شامة «عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ» في كتابه «المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»:

قال تعالى: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» (البقرة ١٨٥). وقال تعالى: «انا انزلناه في ليلة مباركة» (الدخان ٣). وقال جلت قدرته: «انا أنزلناه في ليلة القدر» (القدر ١) فليلة القدر هي الليلة المباركة. وهي في شهر رمضان جمعاً بين هؤلاء الآيات اذلا منافاة بينها، فقد دلت الاحاديث الصحيحة على ان ليلة القدر في شهر رمضان»[١٠٩].

وهذه الآيات تتحدث عن وقت نزول القرآن، ولا تشير الى الكيفية إلا اشارة عامة، كما أشارت آيات اخرى غيرها الى هذا المعنى، ومع ذلك فقد ورد في آثار مروية في تفسير هذه الآيات تفصيلاً اكثر لهذه المسألة، فقد ذكر ان عبد الله بن عباس «ت ٦٨هـ» فسر قوله تعالى: «انا انزلناه في ليلة القدر» بقوله: نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان الى السماء الدنيا، فكان الله إذا اراد ان

---

(١٠٧) انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة «نجم».

(١٠٨) المرشد الوجيز ص١٨.

(١٠٩) المرشد الوجيز ص٩، وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/٢٣٩. والزركشي: البرهان ١/٢٢٨ والسيوطي: الاتقان ١/١١٦.

يحدث في الارض شيئاً أنزله، حتى جمعه، روى ذلك اهل الحديث مثل ابن ابي حاتم، وابن ابي شيبة والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم[110]، ونص السيوطي على صحة أسانيد تلك الاحاديث[111]. وروي الى جانب ذلك تفسير آخر لقوله تعالى: «انا انزلناه في ليلة القدر». فيذكر ان عامر بن شراحيل الشعبي «ت ١٠٤ على خلاف» قال: نزل أول القرآن في ليلة القدر[112].

وعلى هذا يتحصل من ذلك ان القرآن انزل جملة الى السماء الدنيا وهو قول ابن عباس او انه ابتدأ انزال القرآن في تلك الليلة وهو قول الشعبي.

ولاشك في ان نزول القرآن جملة الى السماء الدنيا هو من أمر الغيب الذي تتوقف معرفته على ورود نص في القرآن أو حديث يبينه، ولكن قول الصحابي في الامور التي ليست موضع اجتهاد، اذا ثبت، حكمه حكم المرفوع، وهو ما ينطبق على رواية ابن عباس هنا، فاذا ثبت ذلك وجب التسليم بما جاء في الرواية المنسوبة الى ابن عباس، اذ من المرجح ان يكون ابن عباس فهم ذلك التفسير من النبي صلى الله عليه وسلم.

على ان مما ينبغي الالتفات اليه في موضوع نزول القرآن هو ان هذا الاختلاف لا يؤثر في شيء على نص القرآن الكريم. فسواء كان الثابت هو ما نقل عن ابن عباس أم ما روى عن عامر الشعبي، فالقرآن واحد في كلا القولين، وهما يؤولان الى نتيجة واحدة وهي ان القرآن تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً، وظل ينزل عليه مدة تقرب من ثلاث وعشرين سنة في الراي الراجح على أساس انه عاش في مكة ثلاثة عشر عاماً بعد النبوة، ثم عاش عشر سنين في المدينة بعد الهجرة كما روى ذلك البخاري عن ابن عباس[113].

---

(١١٠) انظر الزركشي: البرهان ١/٢٢٨ ـ ٢٢٩. والسيوطي: الاتقان ١/١٦٦. والطبري: جامع البيان ٣٠/٢٥٨.

(١١١) الاتقان ١/١٦٧.

(١١٢) الطبري: جامع البيان ٣٠/٢٥٨. وابو شامة: المرشد الوجيز ص ٢٠.

(١١٣) فتح الباري ٧/٢٢٧.

المبحث السابع: حكمة التنجيم:

استغرق نزول القرآن الكريم ثلاث وعشرين عاماً. فهو لا يكون ظاهرة مؤقتة او خاطفة ولقد نزلت الآيات منجمة، بين كل وحي وما يليه مدة انقطاع تتفاوت طولاً وقصرا[114].

ولكن الم يكن من الممكن تنزيل القرآن كله جملة واحدة؟ وهل هناك حكمة أو هدف معين وراء هذا التنجيم؟

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من امر الوحي شيئاً غير التلقي الواعي ساعة الايحاء ثم الحفظ والتبليغ ودعوة الناس. والله سبحانه هو الذي اختار هذا الطريق لتنزيل القرآن، لحكمة كشف لنا عنها بالقرآن، قال الله تعالى. «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» (الفرقان ٣٢ ـ ٣٣). وقال سبحانه: «وقرآنا فَرَقناهُ، لتقرأهُ على الناس على مُكثٍ، ونزلناه تنزيلا» (الاسراء ١٠٦).

وقد أدرك تلك الحكمة الصحابة رضوان الله عليهم ونحس بها نحن اليوم. «فتلك في الواقع هي الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبة تتسم بميلاد دين جديد وبزوغ حضارة.. فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الاسلام لا سر لها إ لا في هذا التنجيم»[115].

فقد جاء هذا القرآن ليربي امة، ويقيم لها نظاماً، وجاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يقرا لمجرد الاستمتاع الذهني أو لمجرد المعرفة، ومن ثم جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها، ووفق استعدادها الذي ينمو يوماً بعد يوم في ظل ذلك المنهج التربوي الالهي الدقيق. من اجل هذا كله نزل القرآن مفصلاً، يبين اول ما يبين من منهجه لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويثبته على طريقه[116]، ويتابع

---

(١١٤) انظر : مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص٢١٩.

(١١٥) المصدر نفسه ص٢٢١ ـ ٢٢٢

(١١٦) ذكر ابو شامة «المرشد الوجيز ٢٨» ان قوله تعالى : «لنثبت به فؤادك» يتحمل معنين، الاول: تقوية قلب النبي وتثبيته. والثاني: تيسير حفظ القرآن عليه. لانه كان امياً. «وانظر الزركشي: البرهان ١/٢٣١. والسيوطي: الاتقان ١/١٢١» ولعل في ما ذكره «ابو شامة من تيسير الحفظ نظراً لاننا عرفنا من قبل ان الله تعالى قد تكفل لرسول الله بحفظ القرآن، فكان لا يعجز عن حفظ السورة الطويلة اذا نزلت عليه مرة واحدة.

«روله على مراحل الطريق جزءاً بعد جزء «كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا»، والترتيل: التفريق. ولقد حقق القرآن بمنهجه ذلك خوارق في تكييف نفوس الجماعة المؤمنة الاولى[117].

وقد ادرك الصحابة تلك الحكمة التربوية من نزول القرآن الكريم مفرقاً، وهم الذين عاشوا تجربة تلقي القرآن على ذلك النحو، فلمسوا ثمار ذلك المنهج عملياً في حياتهم: قالت السيدة عائشة، ام المؤمنين رضي الله عنها كما جاء في صحيح البخاري: انما نزل اول مانزل منه «اي القرآن» سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل لاتزنوا لقالوا لاندع الزنا ابداً. لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم واني لجارية ألعب: «بل الساعةُ موعدُهم، والساعةُ أدهى وأمر» «القمر ٤٦»، ومانزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده...»[118].

قال ابن حجر[119]: «أشارت الى الحكمة الالهية في ترتيب التنزيل، وان اول مانزل من القرآن الدعاء الى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ولهذا قالت: «ولو نزل اول شيء لاتشربوا الخمر لقالوا لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف.....».

فلم يكن نزول القرآن الكريم مفرقاً مصادفة اذن، ولم تكن تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن على الناس على مكث[120] دون حكمة. فقد ظل القرآن ينزل في مكة ثلاث عشرة سنة وهو يعالج قضية العقيدة، حتى اذا استوفت هذه القضية ماتستحقه من البيان واستقرت في قلوب الجماعة المؤمنة استقراراً مكيناً ثابتاً،

---

(١١٧) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ١٩/٢٥٦٢ و١٥/٢٢٥٣.
(١١٨) ابن حجر: فتح الباري ٩/٣٩. ورواه ايضاً : الرزاق: المصنف ٣/٣٥٢.
(١١٩) فتح الباري ٩/٤٠، وانظر: العيني: عمدة القارىء ٢٠/٢٢.
(١٢٠) المكث: الاناة واللبث والانتظار «انظر ابن منظور: لسان العرب مادة مكث».

نزلت الآيات تفصل مايتعلق بنظام الاسلام في الحياة، فكانت النفوس تتلقى تنظيمات الاسلام بالرضا والقبول. فأبطلت الخمر وأبطل الربا وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها، ابطلت بآيات من القرآن، أ كلمات من رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل ذلك المنهج التربوي الرباني العظيم[١٢١].

المبحث الثامن: اسباب النزول:

١ ـ معنى (اسباب النزول):

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك اختيار الوقت الذي ينزل فيه القرآن عليه، فذلك أمر مرتبط بمشيئة الله تعالى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، فكان القرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل او النهار، في السفر او في الحضر قائماً او قاعداً، ماشياً أو راكباً، دون ان يكون له في ذلك اي اختيار.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسألُ من المسلمين ومن غيرهم، فربما اجاب من فوره، وربما انتظر نزول القرآن مبيناً الجواب، أو كاشفاً عن الحكم، وتأمل هذه الآيات الكريمة.

«يسألونك عَن الاهلةِ، قُل: هي مواقيتُ للناسِ والحج» (البقرة ١٨٩).

«يسألونك ماذا ينفقون؟ قل: ما انفقتم من خير فللوالدين...» (البقرة ٢١٥).

«يسألونك عن الساعة أيان مُرساها؟ قُل: انما علمُها عند ربي» (الاعراف ١٨٧).

«يسألونك عن الروح قل الروحُ من أمر ربي» (الاسراء ٨٥).

اذا تأملت هذه الآيات احسست ان نزولها ارتبط بسؤال، وربما نزلت الآية عقب حادثة أو مشكلة وقعت في المجتمع الاسلامي، وقت التنزيل.

وقد عبر السلف من الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من العلماء والدارسين، عن ذلك السؤال وتلك الواقعة أو المشكلة التي تنزل عقبها الآية أو

---

(١٢١) ذكر بعض علماء السلف ان النسخ في القران لا يتأتى ولا تظهر ثمرته التربوية الا في نزول القران مفرقاً، لانه لو نزل جملة واحدة لم يجز ان يكون فيه ناسخ ولا منسوخ. «انظر: مكي: الايضاح ص٥١ ـ ٥٢، وابو شامة: المرشد الوجيز ص٢٩».

الآيـات بعبارة «سبب النـزول» فيقولـون «نزلت هـذه الآية بسبب كـذا». وهذه الاسباب في الواقع «ماهي إلا مناسبات لا أسباب حقيقة، وان سميت اسباباً عن طريق التسامح والتجوز»[١٢٢].

ومن هنا قسم العلماء آيات القرآن بالنسبة الى ارتباط نزولها بسؤال او حادثة الى قسمين[١٢٣]:

قسم نزل ابتداء

وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال.

ويلاحظ هنا ان القسم الاول، الذي نزل ابتداء، تتحدث اكثر آياتـه عن أمور العقيدة، ووصف مشاهد القيامة، ووصف الجنة ونعيمها والنار وأهوالها. وكذلك تتحدث عن خبر الامم الغابرة، ومـاحل بأهلها، أما القسم الثـاني، وهو مـا نزل مرتبطاً بأسباب ووقائع، فمعظم آياته مما يتعلق بالتشريع والاحكام والاخلاق[١٢٤].

وفي ارتباط نزول بعض الآيات بمناسبة معينة، وهو ما نسميه بأسباب النزول حكمة تشريعية وتربويـة عظيمة، تجعـل من الحكم الذي تتضمنـه الآية تجـربة واقعيـة، وتطبيقاً عملياً في المجتمع، يتم تحت نظـر النبي صلى الله عليـه وسلم وتوجيهه، ويحس بحكمة التشريع الذي تتضمنه الآية كل من كـان شاهـداً وقت نزولها، وكل من وقف على تلك المناسبة وعرف قصتها فنزول الحكم وقت الحاجة اليه يكون أبعد أثراً في نفوس المخاطبين، ويكون اكثر استجابة له[١٢٥].

٢ ـ الطريق الى معرفة اسباب النزول:

ولمعرفة سبب نزول الآية او مناسبتها طريق واحد، وهـو النقل الصحيـح عن الصحابة الذين عاصروا تنزيل القرآن، وشاهدوا الاحداث التي وقعت حينـذاك ووعوها، يقول الواحدي[١٢٦]: «ولا يحل القول في اسباب نزول الكتاب إلا بالرواية

---

(١٢٢) محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله ص٢٠.

(١٢٣) السيوطي: الاتقان ١/٨٢، وطاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ٢/٣٨٥.

(١٢٤) البوطي: من روائع القرآن ص٣٣.

(١٢٥) المصدر نفسه ٣٤. ومناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص٩٥.

(١٢٦) اسباب نزول القرآن ص٥.

والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الاسباب، وبحثوا في عملها، وجدوا في الطلاب».

وكان الصحابة يتحدثون عن اسباب النزول وينقلونها الى التابعين على نحو ماروى البخاري عن نافع مولى عبدالله بن عمر انه قال: «كان ابن عمر رضي الله عنهما اذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فاخذت عليه يوماً، فقرأ سورة البقرة حتى انتهى الى مكان قال: تدري فيم انزلت؟ قلت: لا. قال: انزلت في كذا وكذا، ثم مضى»[127].

والروايات المنقولة في بيان سبب النزول يصرح في بعضها بأن الاية نزلت بسبب كذا، ويأتي بعضها بصيغة «ان هذه الآية في كذا»، قال ابن تيمية[128]:

«وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة ان هذا داخل الآية، وان لم يكن السبب كما تقول: عني هذه الآية كذا».

من ذلك ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال[129]: «بينما انا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرْث، وهو متكيء على عسيب اذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فسألوه، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت انه يوحى اليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». فهذا بيان صريح لسبب النزول.

وقول مجاهد في الآيات في اول البقرة[130]: «أربع آيات من أول هذه السورة نزلت في المؤمنين، وآيتان بعدها نزلت في الكافرين، وثلاث عشرة بعدها نزلت في المنافقين» ليس بيانا لسبب النزول، وانما هو توضيح للمعنى، يدل على ذلك قول سفيان الثوري[131]: «نزلت أربع آيات في أول البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين».

---

(127) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨٩.

(128) مقدمة في اصول التفسير ص٤٨. ونقله السيوطي في الاتقان ١/ ٨٩.

(129) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٤٠١.

(130) الواحدي اسباب نزول القرآن ص١٩

(131) سفيان الثوري: تفسير العظيم ص١.

ومثل ذلك قول الواحدي في سورة الفيل: «نزلت في قصة اصحاب الفيل، وقصدهم تخريب الكعبة، ومافعل الله تعالى بهم: من اهلاكهم وصرفهم عن البيت، وهي معروفة»[١٣٢]. ولعل السيوطي وهو حين نسب الى الواحدي القول بأن سبب نزول السورة قصة قدوم الحبشة في قوله[١٣٣]: «والذي يتحرر في سبب النزول انه مانزلت الآية ايام وقوعه، ليخرج ماذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فان ذلك ليس من اسباب النزول في شيء، بل هو من باب الاخبار عن الوقائع الماضية»، لكن الواحدي لم يقل ان ذلك سبب لنزول السورة، وانما هو مثل قول مجاهد: نزلت في كذا، اشارة الى ما تتضمنه من حكم او معنى وان كان المتبادر الى الذهن ان كل مايورده الواحدي في كتابه هو من اسباب النزول.

ونقل المحدثون في كتبهم والمفسرون في تفاسيرهم الروايات والاخبار التي تبين سبب نزول الايات، ولكن لم تصنف في كتاب مستقل قبل الامام علي بن عبدالله المديني (ت ٢٣٤هـ)، شيخ الامام محمد بن اسماعيل البخاري، فهو اول من صنف في هذا العلم[١٣٤].

وقال السيوطي[١٣٥]: «أفرد» بالتصنيف جماعة أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري، ومن اشهرها كتاب الواحدي، على مافيه من اعواز، وقد اختصره الجعبري فحذف اسانيده، ولم يزد عليه شيئاً، والف فيه شيخ الاسلام ابو الفضل بن حجر كتاباً مات عنه مسودة، فلم نقف عليه كاملاً، وقد الفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً، ولم يؤلف مثله في هذا النوع، سميته: لباب النقول في اسباب النزول».

والمعروف من هذه الكتب ـ مطبوعاً ـ اليوم كتاب الواحدي (ت ٤٦٨هـ) وكتاب السيوطي (ت ٩١١هـ).

---

(١٣٢) اسباب نزول القران ص ٥٠٠.

(١٣٣) الاتقان ١/ ٩٠. ولباب النقول في اسباب النزول «ط» ص ١٤

(١٣٤) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٧٦.

(١٣٥) الاتقان ١/ ٨٢.

٣ ـ اهمية معرفة اسباب النزول:

الوقوف على سبب نزول الآية ومناسبتها له فائدة كبيرة في تيسير فهم معناها، ومعرفة مافيها من تشريع، وقد أكد العلماء أهمية وقوف مفسر القرآن على مناسبة النزول، «لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، كما يقول الواحدي[١٣٦].

وقال ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ): بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني القرآن[١٣٧]. وقال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فان العلم بالسَّبَب يورث العلم بالمسَبَّب[١٣٨].

وقد تبادر لبعض من تلا قول الله تعالى: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طعُموا، اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، واللّهُ يحبُّ المحسنين» (المائدة ٩٣). تبادر الى ذهنه ان من توفر له ماذكرته الآية من صفات الايمان والعمل الصالح والتقوى والاحسان جاز له ان يأكل مايشاء، ويشرب مايشاء، حتى ولو كان ذلك محرماً بنص الكتاب[١٣٩].

لكن الوقوف على مناسبة نزول هذه الآية يقفنا على حقيقة معناها، ومن يشملهم حكمها، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما انه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة: كيف لاصحابنا الذين ماتوا وكانوا يشربونها؟ قبل نزول التحريم طبعاً، فنزلت هذه الآية: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا...»[١٤٠]. وقد جاءت هذه الآية في المصحف بعد آيات تحريم الخمر مباشرة، وفي سورة المائدة «آية ٩٠ ـ ٩٢».

---

(١٣٦) الواحدي: اسباب نزول القران ص٥.
(١٣٧) السيوطي: الاتقان ١/٨٣.
(١٣٨) ابن تيمية: مقدمة في اصول التفسير ص٤٧.
(١٣٩) الزركشي. البرهان ١/٢٨، والسيوطي: الاتقان ١/٨٢.
(١٤٠) ابن حجر فتح الباري ٨/٢٧٨، والواحدي: اسباب نزول القران ص٢٠٢

وقد ذهب جمهور العلماء الى ان حكم الآية التي تنزل بسبب سؤال من شخص معين، او عقب حادثة تتعلق بشخص معين، يشمل الحالات المشابهة التي تشبه حالة من نزلت الآية بسببه، وهو مايعبرون عنه بعبارة «الاخذ بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»[١٤١].

قال ابن تيمية[١٤٢]: «لم يقل احد من علماء المسلمين ان عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وانما غاية مايقال: انها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم مايشبهه.... والآية التي لها سبب معين ان كانت امراً او نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وان كان خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته».

وقال الطبري، بعد ان تحدث عن سبب نزول قوله تعالى: «هو الذي أنزل عليه الكتاب منه آيـاتٌ محكماتٌ هُن أمُّ الكتـابِ وأخرُ متشـابهات...» (آل عمـران٧) قال[١٤٣]: «وهذه الآية وان كانت نزلت فيمن ذكرناه انها نزلت فيه من اهل الشرك، فانه مَعنِيٌّ بها كل مبتدع في دين اَللّه بدعة، فمال قلبه اليها، تأويـلاً، منه لبعض متشابه آي القرآن».

وورد هذا المعنى في حديث النبي صلى الله عليه وسلم فقـد روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً اقترف اثماً، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فانزلت عليه «واقم الصلاةَ طرفي النهارِ وزُلفاً منَ الليلِ، إنَّ الحسناتِ يُذهبنَ السيئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين» (هود ١١٤) قال الرجل: ألِي هذه؟ قال: لمن عَمِلَ بها مِنْ أمتي[١٤٤].

---

(١٤١) الزركشي: البرهان ١/٣٢، والسيوطي: الاتقان ١/٨٥.

(١٤٢) مقدمة في اصول التفسير ص٤٧.

(١٤٣) جامع البيان ٣/١١١.

(١٤٤) ابن حجر: فتح الباري ٨/٣٥٥

الفصل الثاني
كتابة القرآن الكريم وجمعه

المبحث الاول: كتابة القرآن في حياة رسول الله:

ان الكتابة اهم وسيلة لحفظ الافكار ونقل المعرفة من جيل الى جيل، لكن الكتابة كانت قليلة في بلاد العرب، حين ظهر الاسلام، فكان الكتاب في مدن الجزيرة العربية آنذاك أفراداً معدودين، قال البلاذري وهو يتحدث عن الكتابة في مكة: «دخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب» وقال عن الكتابة في يثرب: ان الاسلام جاء وفيهم عدة يكتبون وذكر منهم احد عشر كاتباً(١٤٥).

وكانت وسائل الكتابة في بلاد العرب بسيطة آنذاك، فالاقلام اعواد القصب، والصحائف اكتاف الابل وعسب النخيل والحجارة الرقيقة، وقطع الاديم، ولعل الرَّقَ والوَرَقَ كانا نادري الوجود في بلاد الجزيرة(١٤٦).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً، لم يمارس القراءة والكتابة، ولكنه اهتم بعد نزول القرآن عليه بتدوينه، ولم تمنع قلة الكتاب ولا وسائل الكتابة الصعبة من تحقيق تلك الغاية، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتجه الى تعلم الكتابة، بل استعان بجماعة من اصحابه ممن يتقن الكتابة، لتدوين ماينزل عليه من القرآن، وما يحتاج اليه من كتابات، فاتخذ عدداً من الكتاب، اختص جماعة منهم بكتابة القرآن، كانوا يُسَمَّوْنَ بكتاب الوحي، وقد ذكر بعض المؤرخين ان عدد من كتب للنبي من الصحابة بلغ ثلاثة واربعين رجلاً(١٤٧). وكان اشهر من كتب الوحي من الصحابة عثمان بن عفان، وعلي بن ابي طالب، وابي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن ابي سفيان، رضي الله عنهم(١٤٨).

---

(١٤٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٧٧ و٤٧٩.

(١٤٦) انظر: الاتقان ١/١٦٨.

(١٤٧) انظر نصر الهوريني: المطالع النصرية ص١٢

(١٤٨) انظر اسماء كتاب النبي عند: الجهشياري: الوزراء والكتاب ص وابن عبد البر: الاستيعاب ١/٦٨، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/١٦١، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد ١/٢٩، وابن حجر: فتح الباري ٩/٢٢.

وكان زيد بن ثابت الزم الصحابة لكتابة الوحي، في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٤٩] لاسيما انه كان جار رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة فقد روى ابن ابي داود عن خارجة بن زيد انه قال[١٥٠]: «دخل نفر على زيد بن ثابت، فقالوا: حدثنا بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ماذا أحدثكم؟ كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا نزل الوحي أرسل اليّ فكتبت الوحي...» وكان رسول الله كثيراً ما يقول «أدعُ لي زيداً وليجئ باللوح والدواة»[١٥١] فيكتب له الوحي.

ولا ريب في ان كتابة القرآن في المدينة كانت أيسر منها في مكة. فالمسلمون في مكة - قبل الهجرة - كانوا قلة، وكانوا يعانون من عنت المشركين وأذاهم، ومع ذلك جاءت روايات تاريخية تؤكد ان القرآن كان يكتب في مكة قبل الهجرة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح اول من كتب له قريش[١٥٢].

وورد في قصة اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان اوائل سورة «طه» مكتوبة في رقعة، في بيت فاطمة بنت الخطاب، اخت عمر[١٥٣]. ولم تكن هذه الصحيفة الا واحدة من صحف كثيرة كانت متداولة بين المسلمين في مكة، يقرؤون فيها القرآن[١٥٤].

وكتابة القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مسألة متروكة للصدفة، وانما كانت مقصودة وخاضعة للتوجيه النبوي الحكيم، فلولا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتابة القرآن لما كان هناك ذلك الاهتمام الكبير

---

(١٤٩) ابن عبدالبر: الاستيعاب ١/٦٨.
(١٥٠) كتاب المصاحف ص٣.
(١٥١) البخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٢٧ والذهبي: سير الاعلام النبلاء ٢/٣٠٨.
(١٥٢) ابن عبدالبر: الاستيعاب ١/٦٨ وانظر: ابن قتيبة: المعارف ص١٣٠.
(١٥٣) ابن سعد الطبقات الكبرى ٣/٢٦٧. وابن هشام: السيرة النبوية ١/٣٤٤
(١٥٤) محمد حسين هيكل: الصديق ابو بكر ص٣٠٩.

بكتابته، خاصة ان وسائل الكتابة كانت صعبة، لا تساعد على كتابة النصوص الطويلة بسهولة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الشيء من القرآن دعا بعض من كان يكتب له، فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يعنيها لهم[١٥٥].

وكانت كتابة القرآن تخضع للمراجعة والتدقيق، حتى لا يتطرق احتمال الخطأ او النقصان الى كتاب الله تعالى. فقد روى عن زيد بن ثابت انه قال: «كنت اكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يملي علي، فاذا فرغت قال: اقرأه فأقرأه، فان كان فيه سَقْطٌ أقامَهَ، ثم اخرج به الى الناس»[١٥٦]. وربما اجتمع بعض الصحابة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يدققون ويرتبون ما نزل من القرآن، كما روي عن زيد انه قال: «كنا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع...»[١٥٧]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى في اول عهد الاسلام عن كتابة شيء من كلامه غير القرآن، خشية اختلاطه بالقرآن، فقال «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني غير القرآن فليمحه»[١٥٨].

ويبدو ان عدداً غير قليل من الصحابة كان يكتب القرآن، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم[١٥٩]: «لا تكتبوا القرآن الا في شيء طاهر»، ومن ثم كثرت الصحف التي كتب عليها القرآن في ايدي الصحابة حتى ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى ان يُسافر بالقرآن او المصاحف الى ارض العدو خشية ان ينالوها[١٦٠].

وقد ظل القرآن يكتب في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم على القطع المتفرقة، دون ان يجمع ويكتب على الصورة التي نجدها للمصحف اليوم، روى

---

(١٥٥) انظر: احمد بن حنبل: المسند ١/ ٣٩٩ و٤٩٨، وابو شامة: المرشد الوجيز ص٣٢، والزركشي: البرهان ١/ ٢٣٤

(١٥٦) الصولي: ادب الكتاب ص١٦٥ والسمعاني: ادب الاملاء والاستملاء ص٧٧.

(١٥٧) الحاكم: المستدرك ٢/ ٢٢٩، وابو شامة: المرشد الوجيز ص٤٤ ومعنى تأليف القران هنا: ترتيب الآيات المتفرقة في سورها، من القطع التي كتب عليها. والرقاع جمع رقعة، وهي تطلق على ما كان يكتب عليه القرآن آنذاك.

(١٥٨) ابن ابي داود: المصاحف ص٤. والخطيب البغدادي: تقييد العلم ص٢٩

(١٥٩) ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٩و.

(١٦٠) المصدر نفسه ورقة ٩و، وورقة ٢٢ ظ، وابن قتيبة: عيون الاخبار ٢/ ١٣١. ابن ابي داود: المصاحف ص١١٧٩ وما بعدها.

الطبري في تفسيره ان محمد بن شهاب الزهري قال «قُبِضَ النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء، وانما كان في الكرانيف والعُسُب»[١٦١]، وقد نص ابن حجر والقسطلاني على ان القرآن كان كله قد كتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في الصحف والالواح والعسب، لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور[١٦٢]. وانما لم يجمع القرآن في مصحف منظم في حياة رسول الله عليه وسلم لان القرآن كان ينزل مفرقاً، كما عرفنا، ولان السورة ربما نزل بعضها، ثم تأخر نزول تتمتها، فكان القرآن يكتب على القطع حتى اذا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهم الله الخلفاء الراشدين جمع القرآن على نسق ما كان يقرأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من القطع التي كتبت بين يديه[١٦٣].

المبحث الثاني: جمع القرآن في خلافة الصديق:

تولى ابو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى، في شهر ربيع الاول من السنة الحادية عشرة للهجرة[١٦٤]. وكان اول ما واجهه ـ في خلافته ـ ارتداد قبائل من العرب عن إداء بعض حقوق الاسلام.

فوقف الصديق من هؤلاء موقفاً حازماً، وقال كلمته المشهورة[١٦٥]: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه». وانضم بعض المرتدين الى مدعي النبوات الكاذبة فجهز الصديق الجيوش التي كان في طليعتها كبار الصحابة، لقتال هؤلاء الخارجين على الدين ولم تمض الا فترة يسيرة حتى عادت الجزيرة العربية كلها الى الاسلام.

وقد استشهد في تلك الحروب عدد من الصحابة رضوان الله عليهم كان من بينهم عدد من حفاظ القرآن. وكانت معركة اليمامة، التي اذل الله فيها مسيلمة

---

(١٦١) جامع البيان ١/٢٨. وانظر: السيوطي الاتقان ١/١٦٤. والكرانيف والعسب هي اصول سعف النخيل، اشارة الى القطع التي كتب عليها القرآن، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

(١٦٢) ابن حجر: فتح الباري ٩/١٢. والقسطلاني. لطائف الاشارات ١/٥١.

(١٦٣) انظر ابن حجر : فتح الباري ٩/١٢. والسيوطي الاتقان ١/١٦٤.

(١٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ١/٦٨.

(١٦٥) المصدر نفسه ١/٧٩.

الكذاب وجمعه، من اعظم الغزوات في حروب الردة، وأبعدها أثراً، وقد استشهد فيها عدد من كبار الصحابة من المهاجرين والانصار وغيرهم كان من بينهم قريب من خمسين من حملة القرآن[١٦٦].

وكانت هذه الاحداث، والعدد الكبير الذي قتل فيها من الصحابة من حملة القرآن خاصة، من أهم العوامل التي نبهت عمر بن الخطاب وبعض الصحابة الى ضرورة جمع القرآن في صحائف موحدة، بدل تلك القطع المتفرقة خشية ان يقتل عدد اخر من حفاظ القرآن من الصحابة، او ان تذهب بعض تلك القطع التي كتبت عليها، فيتعرض القرآن الى ضياع شيء منه، او نسيانه، وكانت حروب اليمامة ونتائجها السبب المباشر الذي وضع تلك الفكرة موضع التنفيذ.

وقد نقلت كتب الحديث والتاريخ تفاصيل عملية جمع القرآن في الصحف من القطع التي كتبت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى البخاري وغيره، عن محمد بن شهاب الزهري، عن عبيد بن السباق، ان زيد بن ثابت قال[١٦٧]: «ارسل اليّ أبو بكر الصديق مَقْتَلَ اهل اليمامة، فاذ عمر بن الخطاب عنده، قال ابو بكر رضي الله عنه ان عمر أتاني، فقال: ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، واني اخشى ان يستحر القتل بقراء القرآن في المواطن كلها، فيذهب كثير من القرآن، الا ان تجمعوه واني ارى ان تأمر بجمع القرآن. قال ابو بكر: قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر: هو - والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر.

«قال زيد: قال ابو بكر: انك رجل شاب، عاقل، لانتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف

---

(١٦٦) المصدر نفسه ١/ ٩٠.

(١٦٧) الرواية في صحيح البخاري في كتاب التفسير ٦/ ٨٩ - ٩٠ وكتاب فضائل القران ٦/ ٢٢٥ وكتاب الاحكام ٩/ ٩٢ - ٩٣ وانظر: ابو عبيد: فضائل القران ورقة ٣٥و٠ وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٦ - ٨. والبناء الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/ ٣١. وذكر ان الترمذي والنسائي نقلا الرواية ايضاً. وانظر: كذلك: ابن النديم: الفهرست ص٢٤، والزركشي: البرهان ١/ ٢٣٣. والسيوطي: الاتقان ١/ ١٦٥.

تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال ابو بكر: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر، رضي الله عنهما.

«فقمت فتتبعت القرآن، أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب، وصدور الرجال[168]، حتى وجدت اخر سورة التوبة «لقد جاءكم رسولٌ من انفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم» حتى خاتمة براءة، مع خزيمة بن ثابت ـ أو ابي خزيمة ـ الانصاري لم أجدها مع احد غيره[169]. فالحقتها في سورتها.

وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند ابي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر» رضي الله عنهم.

وتتضح من هذه الرواية جملة امور تتعلق بجمع القرآن، منها السبب الذي دفع الصحابة الى القيام بجمع القرآن، وهو الخوف من ضياع بعض القرآن بذهاب حفظته من الصحابة، حيث قال عمر بن الخطاب: «واني أخشى ان يستحر القتل بقراء القرآن في المواطن كلها، فيذهب كثير من القرآن».

ويفهم من هذه الرواية ايضاً ان القرآن لم يجمع في صحف منظمة قبل هذا الجمع، «كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله[170]، لكن هذا لاينفي ان القرآن كان مكتوباً بأكمله على القطع المتفرقة، كما تشير الى ذلك الروايات الكثيرة على نحو ما جاء في قول الزهري «قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع

---

(١٦٨) ذكر ابن حجر «فتح الباري ٩/ ١٥» ان الواو في «وصدور الرجال» بمعنى «مع» اي: أكتبه من المكتوب الموافق للمحفوظ في الصدور.

(١٦٩) اي لم يجدها مع غيره مكتوبة، لان الصحابة الكرام كانوا يحفظون القران كلاً او جزءاً.

(١٧٠) لا يعارض هذا ما ذكر من ان سالم بن معقل مولى أبي حذيفة كان اول من جمع القرآن، كما نقل السيوطي عن ابن اشته «الاتقان ١/ ١٦٦»، لان سالماً رضي الله عنه استشهد يوم اليمامة «انظر: ابن قتيبة: المعارف ص١١٩ والذهبي: سير اعلام النبلاء ١/ ١٢٢»، ولا ماورد عن اشعث عن محمد بن سيرين من ان علي بن ابي طالب رضي الله عنه اقسم بعد وفاة النبي الا يرتدي برداء الا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف. قال ابن ابي داود «كتاب المصاحف ص١٠»: لم يذكر المصحف الا اشعث، وهو لين الحديث، انما رووا حتى اجمع القرآن». وقال ابن حجر عن حديث اشعث «فتح الباري ٩/ ١٣»: اسناده ضعيف لانقطاعه.

في شيء وانما كان في الكرانيف والعسب». فالذي قام به زيد في خلافة الصديق هو جمع تلك القطع ونسخها في صحف منظمة بعد ان دعت الضرورة الى ذلك، «فلم يأمر ابو بكر الا بكتابة ما كان مكتوباً»[١٧١].

وقد جاء في بعض الروايات ان الصحف التي جمع فيها القرآن كانت من القرطاس ففي موطأ ابن وهب عن مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله بن عمر، قال[١٧٢]: جمع ابو بكر القرآن في قراطيس». والقرطاس: هو الورق الذي يعمل من البردي في مصر قديماً، والقرطاس ايضاً الصحيفة[١٧٣]، ونقل موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب، قال: لما اصيب المسلمون باليمامة فزع ابو بكر رضي الله عنه الى القرآن، وخاف ان تهلك منه طائفة وانما كان في العسب والرقاع، فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جُمِعَ على عهد ابي بكر رضي الله عنه فكتبوه في الورق وجمعوه فيه، فكان ابو بكر اول من جمع القرآن في الصحف[١٧٤].

وتسمية ما جمع فيه زيد القرآن بالصحف لايعني ان تلك الصحف لم تكن على شكل منظم، اذ نجد في بعض الروايات ان تلك الصحف كانت محفوظة بين لوحين. كما روي عن علي رضي الله عنه إنه قال[١٧٥]: «رحمة الله على ابي بكر، كان اول من جمع القرآن بين اللوحين». وجاء في بعض الروايات تسمية تلك الصحف باسم المصحف، كما نقل الطبري: «ان ابا بكر اول من ورَّث الكلالة، وجمع المصحف»[١٧٦]. ولعل التسمية بالصحف كانت قد ظهرت اولاً، اخذاً من قوله تعالى: «رسول من الله يتلو صُحُفاً مطهرة» (البينة ٢). لاسيما ان القرآن كان اول كتاب عرفه المسلمون في تلك الفترة ثم ظهرت كلمة «المصحف» بعد ذلك[١٧٧] وهي بضم

---

(١٧١) ابن حجر: فتح الباري ٩/١٣

(١٧٢) ابن حجر: فتح الباري ٩/١٦.

(١٧٣) ابن منظور: لسان العرب مادة «قرطس».

(١٧٤) انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٤، وابن حجر: فتح الباري ٩/١٦ والسيوطي: الاتقان ١/١٦٩

(١٧٥) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٥.

(١٧٦) جامع البيان ١/٢٨.

(١٧٧) روى موسى بن عقبة، عن ابي شهاب انه قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق، قال ابو بكر: التمسوا له اسماً، فقال بعضهم: السفر، وقال بعضهم المصحف، فإن الحبشة يسمونه المصحف، وكان ابو بكر اول من جمع كتاب الله، وسماه المصحف. «انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٤، والسيوطي: الاتقان ١/١٤٩».

الميم وكسرها، والمصحف: هو الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين[178].

وجاء في الرواية السابقة عن جمع القرآن الصفات التي تميز بها زيد بن ثابت ليقع عليه اختيار الخليفة الاول للقيام بهذه المهمة غير اليسيرة، التي قال عنها زيد نفسه انها أثقل من نقل جبل من الجبال، ومنبع تلك الصعوبة هو كون الامر يتعلق بكتاب الله تعالى، فلا مجال لاقل خطأ في كتابته، ثم ان وسائل الكتابة الصعبة - آنذاك - لا تساعد على كتابة نص طويل - مثل القرآن - بسهولة ويسر. لكن زيد بن ثابت كان أجدر الصحابة للقيام بهذا العمل، لانه كما قال الصديق:

١ - كونه شاباً، فيكون انشط لما يطلب منه.

٢ - وكونه عاقلاً، فيكون اوعى له.

٣ - وكونه لا يتهم، فتركن النفس اليه.

٤ - وكونه كان يكتب الوحي لرسول الله، فيكون اكثر ممارسة له، وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره، لكن متفرقة[179].

وقد كان هنالك تعاون جاد بين الصحابة لمساعدة زيد بن ثابت في انجاز جمع القرآن، فقد روي ان أبا بكر طلب من عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت ان يقعدا على باب المسجد، ويناديا: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف الالواح والعسب[180]. وكانا لا يقبلان عن احد شيئاً حتى يشهد شهيدان[181]. وقد قيل ان المراد بالشهيدين ان يشهدا على ان ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم[182]، قال ابو شامة[183]: «انما كان قصدهم ان ينقلوا من عين المكتوب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكتبوا من حفظهم...».

---

(١٧٨) ابن منظور: لسان العرب مادة صحف.

(١٧٩) انظر ابن حجر: فتح الباري ٩/١٣.

(١٨٠) انظر في ذكر المواد التي كتب عليها القرآن الكريم قبل جمعه في الصحف: ابن حجر: فتح الباري ٩/١٤. والعيني: عمدة القارىء ٢٠/١٧ والسيوطي: الاتقان ١/١٦٨.

(١٨١) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٦. والسيوطي: الاتقان ١/١٦٦.

(١٨٢) أبو شامة: المرشد الوجيز ص٥٥. وابن حجر: فتح الباري ٩/١٥. والسيوطي: الاتقان ١/١٦٧.

(١٨٣) المرشد الوجيز ص٥٧.

ويتبين من ذلك ان زيد بن ثابت اتبع في جمع القرآن طريقـة التحقيق العلمي التي تنأى عن الخطأ، وقد اتبع الطريقة بدقة، دونها كل الدقة، فقد طلب ابو بكر الى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب ان يجيء به الى زيد، واجتمع لزيـد من الرقاع والاكتاف وجريد النخل ورقيق الحجارة ومن كل ما كتب اصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم القرآن عليه، الشيء الكثير. عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه ولايثبت آية إلا اذا اطمأن الى اثباتها كما أوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٨٤].

واستغرقت عملية جمع القرآن ما يقرب من سنة او دون ذلك، فقد تم ذلك بعد غزوة اليمامة، التي وقعت في الاشهر الاخيرة من السنة الحادية عشرة، وقبل وفاة الصديق رضي الله عنه التي كانت في جمادي الاخرة سنة ثلاث عشرة[١٨٥]. ولاشك في ان جمع القرآن تم قبل وفاة الصديق بفترة، اذ ان الرواية تشير الى ان الصحف التي جمع فيها القرآن أودعت عنده حتى توفاه الله، ثم انتقلت الى الخليفة الثاني بعده عمر بن الخطاب، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمـر، لتكون رهن تصرف الخليفة الثالث.

وكان جمع القرآن من جلائل الاعمال التي ازدان بها عهد الصديق، ان لم يكن اجلها[١٨٦]، وكان علي بن ابي طالب رضي الله عنه قد قال: «رحم الله ابا بكر، كان أول من جمع القرآن بين اللوحين» وفي رواية اخرى انه قـال: «اعظم الناس أجـراً في المصاحف أبو بكر، فانه اول من جمع القرآن بين اللوحين»[١٨٧].

وكان المسلمون قد اتجهوا، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كتابة القرآن في الصحف، ولم يعتمدوا في تعلم القرآن وقراءته على الحفظ فقط[١٨٨]، ولكن معظم تلك التدوينات لم تكن منظمة أو موحدة، وانمـا كانت تعتمـد على الجهـد

---

(١٨٤) محمد حسين هيكل: الصديق ابو بكر ص٣٢٢.
(١٨٥) تاريخ خليفة ١/١٠٥. وانظر: محمد طاهر الكردي: تأريخ القرآن ص٢٨
(١٨٦) محمد حسين هيكل: الصديق ابو بكر ص١٦.
(١٨٧) ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٣٥و. وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٥.
(١٨٨) انظر في اخبار بعض تلك المصاحف: ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٣٧ و١٥٥ و١٥٧.

الفردي في الغالب، ولم يتوافر لشيء من تلك الصحف، التي كان يحتفظ بها بعض الصحابة وغيرهم من المسلمين، ما كان قد توافر للصحف التي جمع فيها القرآن بن ثابت في خلافة الصديق. ولذلك سوف نجد ان الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه يأمر في خلافته بنقل عدة نسخ من هذه الصحف وارسالها الى الامصار الاسلامية، ويأمر بحرق ماسواها، مما هو مكتوب فيه القرآن وكان بأيدي المسلمين، ويوجههم الى نقل القرآن من هذه المصاحف لكي تتوحد المصاحف التي يقرأ فيها المسلمون، ويحفظ القرآن من الاختلاف.

المبحث الثالث: انتساخ المصاحف وتوزيعها على الامصار في خلافة عثمان

امتدت الفتوحات الاسلامية خارج ارض الجزيرة العربية، ودخل في الدين اقوام من مختلف الاجناس، فأقبلوا على تعلم القرآن والعربية والتفقه بأحكام الدين، وكان الصحابة الذين نزلوا في الامصار الاسلامية يعلمون من حولهم من المسلمين امور الدين، ويقرئونهم القرآن، على نحو ما كانوا يقرؤون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رخص للصحابة بقراءة القرآن بالنطق الذي يستطيعون تحقيقه، بقوله: «ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»، نظراً لاختلاف لهجات القبائل العربية في الجزيرة، ولم يحملهم النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم نطق معين، على نحو ما ستعرف في موضوع قراءة القرآن، ان شاء الله.

وقد مرت سنوات خلافة الصديق، التي تم فيها ذلك الانجاز العظيم الذي حفظ القرآن مصوناً كاملاً في الصحف التي ظلت محفوظة في دار الخلافة، ثم مرت سنوات خلافة عمر ابن الخطاب، التي امتدت فيها الفتوحات في كل جانب، وقد اتاحت حركة الفتوح ان يلتقي المسلمون، خاصة في الجيل الذي أخذ من الصحابة، وان يتدارسوا القرآن، ويتذاكروه وكان كل واحد منهم يقرأه على نحو ما تعلمه من الصحابي الذي أخذ عنه وكان في قراءات الصحابة بعض وجوه رخصة الاحرف السبعة، فتلقى جيل التابعين تلك القراءة عمن اقرأهم من الصحابة، وتراجعوا في بعض وجوه القراءات، وادعى بعضهم ان قراءته أصح من قراءة غيره.

وكانت مظاهر تلك الحالة اشد وضوحاً في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وتنقل لنا الروايات صوراً لذلك الاختلاف في القراءة، وعلى مستويات متعددة، فمن ميدان الحرب واختلاف الجند، الى ميدان التعليم واختلاف المعلمين وتلاميذهم. ويبدو ان اخبار ذلك الاختلاف قد تكاثرت على سسامع الخليفة في المدينة ومعه كبار الصحابة، مما جعلهم يفكرون في الوسائل التي يمكن بها تفادي النتائج الخطيرة التي قد تترتب على مثل هذه الظاهرة.

وكانت الكوفة التي نزلها الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه معلماً وفقيهاً، من اكثر الامصار الاسلامية التي تشير الروايات على وقوع اختلاف حول القراءة فيها، حتى ان عمر بن الخطاب كان قد أنكر على ابن مسعود قراءته «عتى» بدل «حتى» وكتب اليه[١٨٩]: «أما بعد، فان الله تعالى انزل القرآن بلغة قريش، فاذا اتاك كتابي هذا فأقرىء الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل»، وكان ذلك قبل ان يجمع عثمان الناس على قراءة واحدة، وعبدالله بن مسعود كان من قبيلة هذيل[١٩٠].

ومما يروى في ذلك ايضاً انه «لما كان في خلافة عثمان رضي الله عنه جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك الى المعلمين، فبلغ ذلك عثمان، فقام خطيباً، فقال: انتم عندي تختلفون فيه فتلحنون، فمن نأى عني من الامصار اشد اختلافاً فيه وأشد لحناً، اجتمعوا يا اصحاب محمد، واكتبوا للناس اماماً يجمعهم»[١٩١].

وقال ابو شامة في هذا الصدد[١٩٢]: ثم ان اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقرؤون بالقراءة التي اقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقنهم باذن الله عز وجل، الى ان وقع الاختلاف بين القراء في زمن عثمان وعظم الامر فيه وكتب الناس بذلك من الامصار الى عثمان، وناشدوه الله تعالى في جمع الكلمة وتدارك الناس قبل تفاقم الامر، وقدم حذيفة بن اليمان من غزوة ارمينية، فشافهه بذلك،

---

(١٨٩) انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٠١. وابن حجر: فتح الباري ٢٧/٩.

(١٩٠) انظر امثلة اخرى للاختلاف في القراءة: ابن داود: كتاب المصاحف ص١٢ ـ ١٤

(١٩١) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٢١ والطبري: جامع البيان ٢٧/١

(١٩٢) المرشد الوجيز ص٦٨.

فجمع عثمان عند ذلك المهاجرين والانصار، وشاورهم في جمع القرآن على قراءة واحدة ليزول بذلك الخلاف وتتفق الكلمة، فاستصوبوا رأيه، وحضوه عليه، ورأوا انه من احواط الامور للقرآن. فاستحضر الصحف من عند حفصة، ونسخها في المصاحف، وبعث بها الى الامصار».

وبذلك تضافرت الاسباب والدواعي التي جعلت عثمان - رضي الله عنه - يفكر في جمع الناس على مصحف موحد في رسمه، يجمع المسلمين على قراءة واحدة، وهي القراءة العامة التي كان يقرأها عامة الصحابة في المدينة، التي كتب زيد بن ثابت القرآن بها زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وجمعه في خلافة الصديق بها. وقد روي عن ابي عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي «ت ٧٣هـ» وهو الذي بعثه عثمان مع مصحف اهل الكوفة حين ارسل المصاحف الى الامصار، انه قال: كانت قراءة ابي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والانصار واحدة، كانوا يقرأون قراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه وكان علي - رضي الله عنه - طوال أيامه يقرأ مصحف عثمان ويتخذه أماما[193].

وكان اول ما بدأ به الخليفة الثالث لتحقيق ذلك العمل الجامع أن خطب الناس في المدينة، وفيهم كثير من الصحابة، يستشيرهم ويدعوهم الى القيام بهذه المهمة فوافقوه على رأيه وقالوا له: «فنعم ما رأيت». حسب ما رواه ابن ابي داود عن علي رضي الله عنه[194] والرواية المشهورة التي تحكي خطوات ذلك العمل الكبير هي التي رواها كثير من المحدثين والمؤرخين في كتبهم[195]. ونص في هذه الرواية، كما نقلها البخاري هي: حدثنا موسى، حدثنا ابراهيم، حدثنا ابن شهاب ان أنس بن مالك حدثه: ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي اهل الشام في فتح ارمينية واذربيجان مع اهل العراق، فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال

---

(١٩٣) انظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٧. والزركشي: البرهان ١/ ٢٣٧.

(١٩٤) كتاب المصاحف ص٢٢.

(١٩٥) انظر ابو عبيد: فضائل القرآن ورقه ٣٦و. والبخاري: الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٦. وابن ابي داود: كتاب المصاحف. ص١٨ وابن النديم: الفهرست ص٢٤ والداني: المقنع، ص٥ وابن الاثير: الكامل ٣/ ٥٥ والزركشي: البرهان. ١/ ٢٣٦ وابن خلدون: العبر ٢/ ١٠١٩، والسيوطي الاتقان ١/ ١٦٩.

حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فارسل عثمان الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها اليك. فارسلت بها حفصة الى عثمان.

«فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص. وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا.

«حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة، فأرسل الى كل افق مما نسخوا، وامر بما سواه من القرآن في كل صحيفة او مصحف ان يحرق».

وتبين هذه الرواية السبب الذي جعل الخليفة يأمر بتنفيذ هذا العمل، الذي اشرنا اليه قبل قليل، وهو الاختلاف الذي حصل في قراءة القرآن الكريم، ولخطورة هذه الظاهرة على مستقبل القرآن ومستقبل الامة الاسلامية امر الخليفة الصحابة الاربعة بنسخ عدة نسخ من الصحف التي جمع فيها زيد بن ثابت القرآن في خلافة ابي بكر الصديق، وارسل هذه النسخ الى الامصار الاسلامية، ثم امر باحراق ما سواها من الصحف والمصاحف، مما كان بأيدي المسلمين، حتى يؤتي هذا العمل ثمرته في توحيد المسلمين وجمعهم على مصحف موحد في رسم الكلمات، وهو ما يؤدي الى توحيد القراءة. وقد سارع كل من لديه شيء مكتوب من القرآن الى احراقه. ثقة منه بالمصحف الذي تمتد اصوله الى ماكتب بين يدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي ارتضته جموع الصحابة والتابعين في المدينة وفي غيرها من الامصار[196].

---

(١٩٦) يروى ان عبد الله بن مسعود واهل الكوفة معه لم يرضوا باحراق مصاحفهم، حين وصلهم المصحف من المدينة، لكنهم وافقوا الامة على ما اجمعت عليه بعد ذلك واحرقوا مصاحفهم، وانتسخوا المصاحف من مصحف المدينة، الذي ارسل اليهم «انظر: فضائل القرآن ورقة ٣٦ظ، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٢٤٣ وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٤ و١٨ والقرطبي: الجامع لاحكام القران ١/٥٣ وابن حجر: فتح الباري ٩/١٩ ـ ٢٠ و٩/٤٨ ـ ٤٩».

وقد بينت الرواية السابقة المصدر الذي نقلت منه الجماعة تلك المصاحف فهي نفس الصحف التي جمع فيها زيد بن ثابت القرآن في خلافة ابي بكر وقد عرفت من قبل ان هذه الصحف نقلت من القطع التي كتب عليها القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان كلما نزل عليه الوحي دعا بعض من يكتب له ما نزل عليه من القرآن.

فالمصاحف التي نسخت في خلافة عثمان رضي الله عنه تمثل القرآن الذي كتب باملاء النبي صلى الله عليه وسلم سوى ان ما كتب امام النبي كان مفرقاً في القطع المختلفة، وجمعت تلك القطع في خلافة الصديق في صحف منظمة، على نحو ما تقدم من قبل.

فغاية العمل الذي تم في خلافة الصديق هو جمع القرآن في مكان واحد يؤمن فيه عليه من الضياع او النسيان، وغاية العمل الذي تم في خلافة عثمان هو جمع المسلمين على قراءة واحدة، بعد حصول الاختلاف في القراءة في بعض الجهات، بتوزيع المصاحف التي نسخت في المدينة المنورة، الموحدة في طريقة رسم الكلمات، والحقيقة أن العمل الذي تم في خلافة عثمان ليس جمعاً للقرآن، فالقرآن جمع في خلافة الصديق، وأن ما تم في خلافة عثمان أشبه ما يكون باخراج طبعة موحدة متعددة النسخ للقرآن الكريم.

ولابد من الوقوف عند قول عثمان رضي الله عنه للجماعة القرشيين الذين تولوا نسخ المصاحف مع زيد: «اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم».

وجاء في رواية «في عربية من عربية القرآن» موضع «في شيء من القرآن»(١٩٧)فان هذا القول يمثل القاعدة التي سار عليها الصحابة في النسخ، فتجنبوا بذلك كل احتمال لوقوع اي اختلاف لهجي في المصحف. وهو يدل على الحرص الكبير على ان يكتب القرآن على النطق الذي سمع من النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن. وهو

---

(١٩٧) البخاري: الجامع الصحيح ٦/ ١٢٤

نطق اهل مكة، وقريش خاصة عشيرة النبي: والثلاثة الذين كانوا مع زيد لا شك في انهم اقدر على تقليد النبي من زيد بن ثابت. لانهم نشأوا في بيوت قرشية، وزيد من اهل المدينة اصلاً، ونُقِلَ لنا نموذج مما وقع بينهم من ذلك، قال ابن شهاب[198]: «فاختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه»، فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه، فرفع اختلافهم الى عثمان، فقال: اكتبوه التابوت، فانه نزل بلسان قريش».

★★★

اما الجماعة الذين تولوا العمل فقد كان على رأسهم زيد بن ثابت الانصاري الذي كان الزم الصحابة لكتابة الوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي تولى جمع القرآن في الصحف في خلافة ابي بكر، واجتمع لزيد من الصفات ما أهله للقيام بذلك العمل خير قيام. فقد تربى زيد في كنف الوحي، فكان عمره عند وصول النبي الى المدينة مهاجراً احدى عشرة سنة[199]. وروي انه قال: «أتى بي النبي صلى الله عليه وسلم مقدمة المدينة، فقالوا: يارسول الله هذا غلام بني النجار، وقد قرأ مما انزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعجبه ذلك»[200]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استصغر يوم بدر جماعة فردهم، منهم زيد بن ثابت فلم يشهد بدراً، ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد[201]. ورمي يوم اليمامة بسهم فلم يضره[202]. وقد ظل زيد في المدينة لا يقدم عليه احد في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة، حتى توفي سنة خمس واربعين للهجرة رضي الله عنه[203].

---

(١٩٨) انظر ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٩ وابن حجر: فتح الباري ٩/ ٢٠.

(١٩٩) ابن قتيبة: المعارف ص١١٢ وابن عبدالبر: الاستيعاب ٢/ ٥٣٧ والذهبي: سير اعلام النبلاء ٢/ ٢٠٧

(٢٠٠) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٠٧.

(٢٠١) ابن عبدالبر: الاستيعاب ٢/ ٥٣٧.

(٢٠٢) المصدر نفسه ٢/ ٥٣٨.

(٢٠٣) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٥٩، وقد اختلف في تحديد سنة وفاة زيد الا ان اكثر المصادر تذهب الى ما ذكرناه «انظر: ابن سعد الطبقات ٢/ ٢٦٠ وابن قتيبة: المعارف ص١١٢ وابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٥٤٠ والذهبي: سير اعلام النبلاء ٢/ ٣١٥.

وكان يعاون زيد بن ثابت ثلاثة من شباب الصحابة، وهم جميعاً نشأوا في بيوت قرشية، وهم: عبدالله بن الزبير الذي ولد في السنة الأولى من الهجرة وهو اول مولود في الاسلام من المهاجرين بالمدينة واستشهد بمكة سنة ثلاث وسبعين من الهجرة[٢٠٤]. وسعيد بن العاص، الذي ولد عام الهجرة ايضاً وتوفي سنة تسع وخمسين، وكان سعيد احد اشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة[٢٠٥]. والثالث عبدالرحمن الحارث بن هشام المخزومي، وكان ابن عشر سنين حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٠٦] فكان هؤلاء الثلاثة القرشيون يعملون مع زيد بن ثابت حتى انجزوا نسخ المصاحف التي ارسلت من المدينة الى الامصار الاسلامية.

ويروي ابن سعد[٢٠٧]. وابن ابي داود[٢٠٨]. ان محمد بن سيرين. قال: جمع عثمان لما اراد ان يكتب المصاحف اثني عشر رجلاً من قريش والانصار، فيهم ابي بن كعب[٢٠٩] وزيد بن ثابت. وكأن ابتداء الامر كان الجماعة الاربعة الذين انتدبهم عثمان اولا، ثم احتجوا الى من يساعد في الكتابة[٢١٠]. خاصة ان المصاحف التي نسخت كانت غير قليلة.

اما عدد المصاحف التي تم نسخها في المدينة في خلافة عثمان، وارسلت الى الامصار فانه غير محدد، وما جاء في رواية انس بن مالك السابقة عن نسخ المصاحف من ان عثمان «ارسل الى كل افق بمصحف مما نسخوا» يفهم منه ان

---

(٢٠٤) ابن عبدالبر: الاستيعاب ٣/٩٠٥.

(٢٠٥) المصدر نفسه ٢/٦٢١

(٢٠٦) المصدر نفسه ٢/٨٥٧.

(٢٠٧) الطبقات الكبرى ٣/٥٠٢.

(٢٠٨) كتاب المصاحف ص٢٥.

(٢٠٩) وقع اختلاف بين المؤرخين في السنة التي توفي فيها ابي بن كعب، وفي مشاركته في نسخ المصاحف، فجاء ان وفاته كانت سنة تسع عشرة او اثنتين وعشرين او ثلاثين او اثنتين وثلاثين. «انظر ابن قتيبة: المعارف ص١١٣ وابن عبدالبر: الاستيعاب ١/٦٥ والذهبي: سير اعلام النبلاء ١/٢٧٨، وهناك جملة اخبار تدل على مشاركة ابي في كتابة القرآن سواء اكانت ترجع الى جمع القرآن في خلافة ابي بكر ام الى نسخ المصاحف في خلافة عثمان.

(٢١٠) القسطلاني: لطائف الاشارات ١/٦٢

عدد المصاحف كان كبيراً. وقد جاء في رواية لابن داود ان عثمان «ارسل الى كل جند من اجناد المسلمين بمصحف»[٢١١]. والجند: العسكر والمدينة، والجمع اجناد[٢١٢].

وجاءت روايات متأخرة عن جيل الصحابة تتحدث عن عدد تلك المصاحف، فنقل ابن ابي داود حمزة بن حبيب الزيات «ت ١٥٦هـ»[٢١٣]: «كتب عثمان اربعة مصاحف، فبعث بمصحف منها الى الكوفة، فوضع عند رجل من مراد، فبقي حتى كتبت مصحفي عليه، وحمزة القائل كتبت مصحفي عليه». وروى ابن ابي داود انه سمع ابا حاتم سهل بن محمد السجستاني «ت ٢٥٥ هـ على خلاف» قال[٢١٤]: «لما كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف، فبعث واحداً الى مكة، وآخر الى الشام، وآخر الى اليمن، وآخر الى البحرين، وآخر الى البصرة وآخر الى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً». وقال السيوطي: لم يسمع لمصحفي اليمن والبحرين خبر[٢١٥]. قال الداني[٢١٦]: والاول اصح وعليه الائمة.

واذا كانت هذه الروايات غير قاطعة في تحديد عدد المصاحف التي ارسلها الخليفة الثالث فان تأمل الاسباب التي ادت الى انتساخ المصاحف يُسَوِّغُ القول بأن كل الامصار الاسلامية قد وصلها المصحف الموحد في الترتيب والهجاء، سواء أكان ذلك نسخة مما أنتجته الجماعة التي أوكل اليها الخليفة الثالث ذلك العمل ام نسخة كتبت من احدى تلك النسخ، اذ ان المسلمين سارعوا الى نسخ المصاحف من النسخ التي ارسلها عثمان الى الامصار، ولم تمض الا فترة يسيرة حتى كانت المصاحف التي بأيدي المسلمين كثيرة العدد، ولكنها موحدة في ترتيبها، ورسم الكلمات فيها.

---

(٢١١) كتاب المصاحف ص٢٠، وانظر ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٢٠.
(٢١٢) ابن منظور: لسان العرب مادة «جند».
(٢١٣) كتاب المصاحف: ص٢٤
(٢١٤) كتاب المصاحف ص٢٤.
(٢١٥) الاتقان ١/ ٢٢٤. وقد ذكر القرطبي «الجامع لاحكام القرآن ١/ ٥٤» ان عثمان وجه للعراق والشام ومصر بامهات.
(٢١٦) المقنع ص٩، وانظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٧٣.

اما السنة التي تم فيها نسخ المصاحف وتوزيعهـا، فهي في خلافـة عثمان بن عفان رضي الله عنه لا شك في ذلك، ويـرجح ابن حجـر ان ذلك تم في سنـة خمس وعشرين من الهجرة، وهو الوقت الذي ذكر اهل التاريخ ان ارمينيـة فتحت فيه. وقال: «وغفل بعض من ادركناه فزعم ان ذلك كان في حدود سنة ثلاثين، ولم يذكر لذلك مستنداً»[٢١٧].

★★★

كان نسخ المصاحف قد خضع للمراجعة والتدقيق، على نحو ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يطلب من زيد بن ثابت قراءة ما كتبه، فان كان فيه سقط اقامه. وقد سبق في رواية جمع القرآن ان زيد بن ثابت فقد آيتين من آخر سورة التوبة، اي لم يجدهما مكتوبتين، قـد سمعهما من رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فالتمسهـا فوجدهما مع خزيمة ابن ثابت فأثبتهما في سورتهما. وهذا امر يدل على مراجعة ما كتب من القرآن خشية ان يكون فيه نقص.

وجاء في رواية الزهري عن خارجة بن زيد، بعد رواية انس بن مالك عن نسخ المصاحف «قال ابن شهاب: واخبرني خارجة بن زيد بن ثابت انه سمع زيـد بن ثابت قال: فقدت آية من الاحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت اسمع رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقـرأ بها، فـالتمسناهـا فوجـدناهـا مع خـزيمة بن ثـابت الانصاري[٢١٨]: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» (الاحزاب ٢٣.) فألحقناها في سورتها في المصحف»[٢١٩]. قال ابن حجر «وظاهر حديث زيد بن ثابت

---

(٢١٧) فتح الباري ٩/١٧. وانظر السيوطي: الإتقان ١/ ١٧٠ وقد حدد ابن الاثير «الكامل ٣/ ٥٥» تاريخ نسخ المصاحف بسنة ثلاثين، وتابعه في ذلك ابن خلدون «العبر ٢/١٠١٨».

(٢١٨) اختلفت الروايات في تحديد اسم الصحابي الذي وجد زيد بن ثابت عنده الآيات التي افتقدهـا، ففي بعض الروايات ورد باسم ابي خزيمة الانصاري، وفي بعضهـا خزيمـة بن ثابت الانصـاري، وتقارب الاسمين وورودهما في بعض الروايات واحداً مكان الاخر قد يرجح انهمـا اسمان لصحـابي واحد هـو خزيمة بن ثابت الانصاري وان كان بعض العلماء ذهب الى انهما اسمان لاثنين من الصحابة «انظر ابن سعـد، الطبقات الكبـرى ٣/ ٤٩٠ و٤/٣٧٨ وابن حجر، فتـح الباري ٩/ ٢١ والقسطـلاني، لطـائف الاشارات ١/ ٥٢ هامش ٢».

(٢١٩) البخاري : الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٦.

هذا انه فقد آية الاحزاب عن الصحف التي نسخها في خلافة ابي بكر، حتى وجدها مع خزيمة بن ثابت، ولكن ابن حجر يميل الى ان فقدان آية الاحزاب كان في نسخ المصاحف[٢٢٠].

ويبدو ان ماذكره ابن حجر من ان ظاهر الحديث يدل على ان فقد آية الاحزاب كان ايضاً في جمع القرآن، هو الراجح. وقد ذهب الى ذلك ابن كثير في كتابه «فضائل القرآن»[٢٢١] وجاء فيه بعض الروايات ذكر فقدان زيد لآيتي براءة وآية الاحزاب اثناء جمع القرآن، في خلافة ابي بكر مصرحاً به[٢٢١].

وجاءت روايات اخرى تدل على مقدار ما بذله الصحابة من جهد من اجل ان تكون كتابة القرآن في المصاحف دقيقة، من ذلك ما ذكرناه من ان الزهري ذكر ان الكتاب اختلفوا في كتابة كلمة «التابوت». وقد روى ابو عبيد في كتابه «فضائل القرآن» والطبري في تفسيره «جامع البيان» روايتين عن ابي سعيد هانيء البربري الدمشقي مولى عثمان بن عفان تؤكدان هذا المعنى.

جاء في الرواية الاولى ان هانئاً قال: كنت الرسول بين عثمان وزيد بن ثابت، فقال زيد: سله عن قوله: «لم يتسن»، او «لم يتسنه» (البقرة ٢٥٩) فقال عثمان: اجعلوا فيها هاء[٢٢٣].

وجاء في الرواية الثانية ان هانئاً قال: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف الى ابي بن كعب، فيها «لم يتسن» و«فأمهل الكافرين»، و«لاتبديل للخلق». قال فدعا بالدواة فمحا احدى اللامين وكتب «لا تبديل لخَلْقِ الله» (الروم ٣٠) ومحا «فأمهل» وكتب «فَمَهِّلِ الكافرين» (الطارق ١٧) وكتب «لم يَتَسنَّهْ» (البقرة ٢٥٩) ألحق فيها الهاء[٢٢٤].

---

(٢٢٠) فتح الباري ٩/ ٢١

(٢٢١) فضائل القرآن ص٤٦ وانظر ابن عاشر الانصاري: فتح المنان ص٣٤.

(٢٢٢) انظر: الباقلاني: نكت الانتصار ص٣٢٠ ومقدمة كتاب المباني لمجهول ص٢٠

(٢٢٣) فضائل القرآن ورقة ٣٦ظ وجامع البيان ٢/ ٣٧ وانظر ابن فارس: الصاحبي ص٩.

(٢٢٤) فضائل القرآن ورقة ٣٧ و وجامع البيان ٣/ ٣٨.

وهاتان الروايتان توضحان انه كانت هناك مراجعة واستشارة في اثبات صورة كلمة ما، وتبيان مدى الحرص على ان يأتي المصحف دقيقاً في رسمه، حين يتوقف الكتبة عن الحاق لام او حذف ألف، حتى يستشار في ذلك كبار الصحابة من كتبة الوحي وحفظ القرآن(٢٢٥). وقد قال القاضي ابو بكر الباقلاني(٢٢٦): «وجميع القرآن الذي انزله الله تعالى، وأمر بأثباته ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته، هو الذي بين اللوحين، الذي حواه مصحف عثمان رضي الله عنه لم ينقص منه شيء ولا زيد منه شيء، نقله الخلف عن السلف»

وقد اتفقت كلمة المستشرقين وعلماء الغرب المنصفين ممن لهم دراسات في هذا المجال. وهم لايؤمنون بكون القرآن منزلاً من الله ـ على صحة نقل القرآن وانتهائه بنصه الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهناك بضع شهادات لكبار العلماء من المستشرقين تؤكد ان القرآن هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظاً من التحريف، من بين كتب الديانات جميعاً، وانه لم يتطرق شك الى اصالته، وان كل حرف نقرأه اليوم نستطيع ان نثق بأنه لم يقبل اي تغيير من يوم نزوله(٢٢٧).

المبحث الرابع: ترتيب الآيات والسور في المصحف:

تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، طيلة ثلاث وعشرين سنة، فكان ينزل عليه من القرآن في المرة الواحدة السورة او الآيات او الآية الواحدة، وكان يتلوه على الصحابة، ويأمرهم بكتابته، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن، وانما كان مفرقا في الالواح والقطع المختلفة التي كتب عليها. وقد جمع القرآن في نسخة واحدة في صحف منظمة من تلك الالواح، في خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه ثم نقلت عدة نسخ من تلك النسخة وأرسلت الى الامصار

---

(٢٢٥) روى ابن ابي داود في كتاب المصاحف «ص٢١» والداني في المقنع «ص٧»: ان الذين كانوا يكتبون القران ربما اختلفوا في الشيء فيذكرون الرجل قد تلقى ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعله ان يكون غائباً، او في بعض البوادي، فيكتبون ما قبله وما بعده ويدعون موضعه حتى يجيء او يرسل اليه: «انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٠ والسيوطي: الاتقان ١/ ١٧٠».

(٢٢٦) نكت الانتصار ص٥٩ وانظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٤٠ والسيوطي الاتقان ١/ ١٧٥.

(٢٢٧) انظر نصوص تلك الاقوال في كتاب: النبي الخاتم، لابي الحسن علي الحسني الندوي: ص٣٠ ـ ٣١

الاسلامية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فكل ما هـو موجـود اليوم من مصاحف في الارض انما هو من تلك المصاحف المنقولة من الصحف. ولكن ما هو الاساس الذي قام عليه تـرتيب الآيات في السـور، وترتيب السـور في المصحف؟ وكيف كانت قراءة الصحابة للقـرآن قبل جمعـه في المصحف في خلافـة ابي بكر الصديق، ونسخ الصحف في المصاحف في خلافة عثمان؟

روى الداني بسنده عن عبدالله بن وهب، اخد تلامذة مالك بن انس «ت ١٧٩» امام دار الهجرة بعد عصر التابعين، قال ابن وهب[٢٢٨]: «سمعت مالكاً يقول: انما ألِّف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم»، والتأليف هنا معنـاه الترتيب، وفي اللغـة ألفت الشيء تاليفـاً، اذا وصلت بعضه ببعض، وجمعت بعضه الى بعض[٢٢٩]. وقول الامام مالك هنا يـدل على ان تـرتيب القرآن في المصحف تم على وقت ما كان يسمع الصحابة القرآن مـرتباً في قـراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما يشمل قول مـالك تـرتيب الآيات وتـرتيب السور جميعاً.

اما ترتيب الآيـات في السور فقـد قال عنـه الامام السيـوطي[٢٣٠]: «الاجماع والنصوص المترادفة على ان ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك، واما الاجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشي في البرهان[٢٣١]. وابو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين».

ومن النصوص الدالة على ذلـك ما رواه عبـدالله بن العبـاس، عن عثمان بن عفان، انه قال[٢٣٢]: «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما ياتي عليه الزمان

---

(٢٢٨) الداني: المقنع ص٨. وانظر: علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ٣ظ وأبو شامة: المرشد الوجيز ص٤٦ والقرطبي: الجامع لاحكام القران ١/ ٦٠ والزركشي: البرهان ١/ ٢٧٥ والسيوطي: الاتقان ١/ ١٧٥.

(٢٢٩) انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة «الف».

(٢٣٠) الاتقان ١/ ١٧٢.

(٢٣١) البرهان ١/ ٢٥٦.

(٢٣٢) احمد بن حنبل: المسند ١/ ٣٩٩ و٤٩٨. قال السيوطي عن هذا الحديث «الاتقان ١/ ١٧٢»: «اخرجه احمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم». وانظر: ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٣٥و. وغريب الحديث له ٤/ ١٠٣ وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٣١ وقال الحاكم «المستدرك ٢/ ٢٢١»: «حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

ينزل عليه من السور ذوات العدد، وكان اذا انزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[٢٣٣] وينزل عليه الآية،فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا...

ومن ذلك ايضاً ما روى عن زيد بن ثابت انه قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع...»[٢٣٤]. والرقاع جمع رقعة، وهي القطع التي كتب عليها القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال البيهقي: وهذا يشبه ان يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها باشارة النبي صلى الله عليه وسلم[٢٣٥].

فكان ترتيب الآيات في سورها معروفاً للصحابة ببيان النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه ذلك لهم، وقراءته للقرآن عليهم، وبذلك لم يعرف عن الصحابة انهم اختلفوا في موقع آية من القرآن، بل كان كل آية قد عرف موضعها، وقد مر في احاديث جمع القرآن ان زيداً افتقد آيتين من آخر سورة التوبة، وآية من سورة الاحزاب، اي لم يجدها مكتوبة اول الامر فالتمسها فوجدها عند خزيمة بن ثابت الانصاري. وتأمل قول زيد في آيتي التوبة: «فألحقتها في سورتها»، وقوله في آية الاحزاب: «فألحقناها في سورتها في المصحف». وقد مر بيان ذلك.

ومن النصوص الثابتة تؤكد ان اثبات ما اثبت في المصحف وطريقة ترتيبه انما كان بتوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يملك الصحابة الا الاخذ به، وتجنب العمل بخلافه، هذه الرواية التي نقلها البخاري، عن عبدالله بن الزبير، قال: قلت لعثمان بن عفان: «والذين يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ ازواجاً» قد نسختها الآية

---

(٢٣٣) قوله: «السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» يشير الى اسم السورة، فقد كان يعبر عن اسم السورة بمثل: «السورة التي تذكر فيها البقرة او السورة التي يذكر فيها آل عمران». وانظر ابن ابي شيبة: الكتاب المصنف ٢/٤٩٧. والبخاري: الجامع الصحيح ٦/ ٢٣٩. وابن حجر: فتح الباري ٩/ ٨٧. والسيوطي: الاتقان ١/ ١٥١.

(٢٣٤) البنا الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/ ٣٠. والحاكم: المستدرك ٢/ ٢٢٩ وقال عنه: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» واقره الذهبي.

(٢٣٥) الزركشي. البرهان ١/ ٢٥٦.

الاخرى فلم تكتبها؟ قال: يا ابن اخي، لا اغير شيئاً منه من مكانه[٢٣٦]. فكل شيء في القرآن قد عرف مكانه، ولا يملك الصحابة الا ان يثبتوه كما تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي خلط آيات السور ويأمر بقراءة آيات كل سورة على نحو ما قرأها وعلمها للصحابة، كالذي رواه ابو عبيد قاسم بن سلام بسنده: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال: مررت بك وانت تقرأ من هذه السورة، ومن هذه السورة. فقال بلال: اخلط الطيب بالطيب، فقال اقرأ السورة على وجهها، او قال على نحوها. وفي رواية أخرى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال: اذا قرأت السورة فانفذها[٢٣٧].

ولا ينبغي ان تغيب عن البال تلك الوحدة الموضوعية والاسلوبية التي طبعت كثيراً من سور القرآن وهو يؤكد ان ترتيب الآيات في السور ليس فيه مجال لاجتهاد الصحابة، انما تم بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه بتعليم جبريل ذلك له، فقد كان يعارضه بالقرآن في رمضان مرة في كل عام، وعارضه مرتين في العام الذي قبض فيه صلى الله عليه وسلم. «فالامر الذي لا ريبة فيه ان الآيات قد جمعت سوراً في عهد رسول الله وبتوقيفه»[٢٣٨].

اما ترتيب السور وتتابعها في المصحف فقد ذهب كثير من العلماء الى ان ذلك بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وانه يدخل في قول الامام مالك: «انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(٢٣٦) ابن حجر. فتح الباري ٨/ ١٩٣ والمقصود بـ«الآية الاخرى» في قول عبدالله بن الزبير هو قوله تعالى «والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً يتربصن بـأنفسهن اربعة أشهر وعشراً» (البقرة ٢٣٤). فإن بعض علماء السلف ذهب الى ان هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً، وصية لازواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج» (البقرة ٢٤٠)، على ان في المسألة تفصيلاً يمكن الرجوع اليه في مصادره «انظر النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٧٢ ـ ٧٧ والعيني: عمدة القاري» ١٨/ ١٢١ ومصطفى زيد: النسخ في القران ٢/ ٧٧٦، والذي يعنينا من هذا الخبر هنا هو قول عثمان «يا ابن اخي لا اغير شيئاً منه من مكانه».

(٢٣٧) ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٢٠و- وانظر السيوطي. الاتقان ١/ ٢٠٨.

(٢٣٨) محمد حسين هيكل الصديق ابو بكر ص ٢٠٨.

وقد كانت اسماء السور معروفة بين الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم [239] ولكنهم لم يكتبوها في المصحف في أوائل السور آنذاك، لانهم لم يكتبوا في المصحف الا الفاظ الوحي، وكانوا يقولون «جردا القرآن ولا تخلطوه بشيء..» كما سيأتي بيان ذلك قريباً.

ويبدو ان ترتيب السور في المصحف عرفه الصحابة من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى البخاري وغيره: ان جبريل عليه السلام كان يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم كل سنة مرة في شهر رمضان. فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين [240].

وكان عدد من الصحابة يحفظون القرآن، منهم عثمان بن عفان، وابي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وابو الدرداء، وزيد بن ثابت، وسعد بن عبيد، وابو زيد، وعبادة بن الصامت، وابو أيوب، وتميم الداري، ومجمع بن جارية، وعبدالله بن مسعود. وقد حفظ اكثرهم القرآن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم [241]، ولابد ان يكون هؤلاء الصحابة يحفظون القرآن على نسق معين قد عرفوه من النبي صلى الله عليه وسلم ومن ثم لعلهم لم يجدوا صعوبة في ترتيب السور حين كتبوا القرآن في المصاحف، لشهرة ذلك بينهم.

ومما يتصل بذلك ان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لايدعون قراءة القرآن، ولهم في كل يوم من ذلك نصيب، وبعضهم اوفر حظاً في ذلك من بعض، لاسيما وهم يسمعون القرآن يدعوهم الى ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبهم فيه بمثل قوله [242]: «لا حسد الا في اثنتين، رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق...» ومثل قوله [243]: «خيركم من تعلم

---

(٢٣٩) انظر الزركشي: البرهان ١/ ٢٦٩ والسيوطي: ١/ ١٥٠.

(٢٤٠) البخاري. الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٩ وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٩٤.

(٢٤١) انظر ابن سعد الطبقات الكبرى ٢/ ٢٥٥ والبخاري: الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٩ والزركشي: البرهان ١/ ٢٤١ والسيوطي: الاتقان ١/ ١٩٩

(٢٤٢) (٢٤٣) الجامع الصحيح ٦/ ٢٣٦.

القرآن وعلمه». ومثل قوله[244]: «اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات».

ولذلك كان الصحابة لا يدعون قراءة القرآن في حضر ولا في سفر. وتأمل هـذا الحوار بين معاذ بن جبل وابي موسى الاشعري، وهما في اليمن، بعثهما رسول الله الى هناك لتعليم اهل اليمن الـدين والقران، قبـل حجة الـوداع. قال معـاذ لابي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال: قائماً وقاعداً، وعلى راحلتي، وأَتَفَوَّقُهُ تفَوُّقاً[245]قال: فكيف تقرأ انت يا معاذ؟ قال: انام اول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما احتسب قومتي[246].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة بتعاهـد القرآن[247] وهـو المواظبة عليه بالحفظ والترداد[248]. وكان صلى الله عليه وسلم يقول[249]: انما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقلة، ان عاهد عليها أمسكها، وان أطلقها ذهبت».

ومما يصور شغف الصحابة بقراءة القرآن قصة عبدالله بن عمرو، فقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة مشهورة: كيف تختم؟ قال: كل ليلـة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ القرآن في شهر، قال: اني اجد قوة، قال اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك[250].

ولا شك في ان قراءة الصحابة للقرآن على ذلك النحو، واعادتهم قراءته في كل اسبوع، او في اقل او اكثر، كانت تتم على نسق وترتيب للسور معروف بينهم. وهو ما يرجح ان ذلك الترتيب كان متلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعروفاً بين الصحابة، قبل جمع القرآن في الصحف وقبل نسخها في المصاحف.

---

(٢٤٤) الحاكم: المستدرك ١/ ٥٥٥.

(٢٤٥) قوله «اتفوقه» اي الازم قراءته ليلاً ونهاراً، شيئاً بعد شيء، يعني لا اقرا وردي دفعة واحدة، بل هو كما يحلب اللبن ساعة بعد ساعة واصله مأخوذ من فواق الناقلة، وهو ان تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب وهكذا دائماً «انظر العيني: عمدة القاري» ١٨/ ٣٠».

(٢٤٦) البخاري الجامع الصحيح ٥/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢٤٧) المصدر نفسه ٦/ ٢٣٨.

(٢٤٨) العيني: عمدة القاري» ٢٠/ ٤٩.

(٢٤٩) البخاري: الجامع الصحيح ٦/ ٢٣٧.

(٢٥٠) المصدر نفسه ٦/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣ وانظر ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٨٩.

قال ابن حجر: ومما يدل على ان ترتيب السور توقيفي ما أخرجه احمد وأبو داود عن اوس بن ابي أوس حذيفة الثقفي: قال كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف... فذكر الحديث وفيه: فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «طرأ عَليَّ حزبي من القرآن، فأردت الا اخرج حتى أقضيه» قال أوس: فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه: ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور واحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من ق حتى نختم. فهذا يدل على ان ترتيب السور على ما هو في المصحف الان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٥١].

ومما يؤكد ان ترتيب سور القرآن في المصحف كان معروفاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبتوجيه منه، وان ذلك الترتيب لم يكن من الصحابة عن رأي واجتهاد وانما كان ذلك منهم عن تتبع وانقياد، ما رواه ابو عبيد عن عائشة انها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليلة التمام، فيقرأ البقرة، وآل عمران والنساء، لا يمر بآية فيها استبشار الا دعا ورغب، ولا يمر بآية فيها تخويف الا دعا واستعاذ[٢٥٢].

وكذلك ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود انه قال: في بني اسرائيل «الاسراء» والكهف، ومريم، وطه، والانبياء، انهن من العتَاق الأُوَل، وهن من تِلادِي[٢٥٣] فقد ذكرت السور في الاحاديث السابقة مرتبة على نحو ترتيبها في المصحف. وقد ورد ترتيب لبعض السور على نسق المصحف ايضاً في روايات اخرى[٢٥٤].

وقال السيوطي: ومما يدل على ان ذلك الترتيب توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فصل بين سورها. وفصل بين

---

(٢٥١) ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٤٢ وانظر السيوطي: الاتقان ١/ ١٧٨.

(٢٥٢) فضائل القران ورقة ١٣و.

(٢٥٣) الجامع الصحيح ٦/ ٢٨ انظر ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٣٩ والسيوطي: الاتقان ١/ ١٧٨ والعتاق جمع عتيق وهو القدم النفيس من كل شيء. والتلاد كل مال قديم يورث عن الآباء «انظر ابن منظور: لسان العرب مادة تلد وعتق».

(٢٥٤) انظر: السيوطي: الاتقان ١/ ١٧٧ ـ ١٧٨

طسم الشعراء وطسم القصص بطس النمل، مع انها اقصر منها. ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء، وأخرت طس النمل على القصص[٢٥٥].

واذا لم تكن هذه الروايات والدلالات قاطعة في كون ترتيب السور توقيفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدرجة التي نجدها في ترتيب الآيات، فانه لا جد ما يدلنا الى ان ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة[٢٥٦]. ثم ان هذه الروايات تشير الى ان هذا الترتيب للسور كان معروفاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولعل ذلك كان بتوجيه منه، ومن ثم لم يجد الصحابة مشكلة في ترتيب السور، وهم يكتبون المصاحف، لانهم رتبوا الآيات والسور جميعاً على نحو ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد، فانه باستعراض ما ذكرناه من روايات واخبار يتأكد لنا المعنى الذي نجده في قول الامام مالك بن انس السابق وهو: «انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم». ويتأكد لنا ايضاً ما نجده في قول الامام الحافظ ابي عمرو الداني، في كتابه «البيان في عدّ اي القرآن» وهو: «القول عندنا في تأليف السور وتسميتها وترتيب آيها في الكتابة ان ذلك توقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام منه به، لتوفر مجيء الاخبار بذلك، واقتضاء العادة بكونه كذلك، وتواطؤ الجماعة عليه، وبالله التوفيق»[٢٥٧].

المبحث الخامس: تطور شكل المصحف

كانت الكتابة العربية قبل الاسلام تتألف من ثمانية وعشرين حرفا، خالية من نقاط الاعجام، وليس هناك علامات للحركات، يدل ذلك النقوش المكتوبة على الحجر التي عثر عليها في الوقت الحاضر، ويعود تاريخ كتابتها الى العصر

---

(٢٥٥) الاتقان ١/ ١٧٩

(٢٥٦) ما روى من انه كان لبعض الصحابة مصحف مرتب على نحو يغاير ما هو موجود في المصاحف، في بعض السور. لا يعارض القول بأن هذا الترتيب توقيفي، لان ذلك الترتيب لم ينقل الينا بطريق موثوق «انظر، ابن النديم: الفهرست ص٢٦. واذا صح نقل ذلك فانه كان قبل توحيد المصاحف في خلافة عثمان التي رتبت على ما ثبت في العرضة الاخيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي بها من كان انذاك من الصحابة وغيرهم، واحراق ما سواها.

(٢٥٧) كتاب البيان في عد أي القرآن ورقة ٩ و١٠

الجاهلي[258]. وهناك كتابات اخرى ترجع الى السنين الاولى من تاريخ الاسلام، اشهرها النقش المؤرخ بسنة (١٣١هـ) والمحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة[259]. ونقش العصر الاسلامي الاول تشبه في كتابتها النقوش العربية التي ترجع الى العصر الجاهلي.

وقد كتب القرآن في المصاحف بالكتابة العربية وبالخصائص والمميزات التي كانت تمتاز بها آنذاك، فالحروف ليست معجمة، والحركات غير مرسومة، الى جانب مميزات اخرى تتمثل في حذف حروف المد احيانا، او رسم التاء المدورة مبسوطة، او وصل بعض الكلمات اوفصلها... الخ.

كذلك كان الصحابة قد جردوا القرآن حين كتبوه في المصاحف من كل زيادة ليست من النص القرآني، وكانوا يقولون «جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء»[260]. فلم يكتبوا اسماء السور ولا ما يتعلق بكونها مكية او مدنية ولم يبينوا عدد آيها، ولا كانوا يشيرون الى رؤوس الآي ولا الخموس او العشور ولا الاجزاء.
اما مانجده اليوم في المصاحف من اعجام الحروف وعلامات للحركات وبيان لأسماء السور وذكر مكيها ومدنيها وعدد آيها، وبيان ارقام الأيات والاشارة الى الاجزاء والاحزاب فان ذلك كله انما اضيف في فترات لاحقة.

ويلاحظ ان استكمال المصحف لصورته التي بين ايدينا اليوم قد استغرق عشرات السنين، من تاريخ ارسال المصاحف لصورته التي بين ايدينا اليوم قد استغرق عشرات السنين، من تاريخ ارسال المصاحف الى الامصار الاسلامية في خلافة عثمان رضي الله عنه وقد واجهت تلك الاضافات الى المصحف معارضة قوية من كبار علماء التابعين ومن جاء بعدهم. فهذا ابراهيم النخعي (ت٩٦هـ) فقيه اهل الكوفة قد كره نقط المصاحف وكره العواشر والفواتح وان يكتب سورة كذا

---

(٢٥٨) انظر عن تلك النقوش: جواد علي: تاريخ العرب قبل الاسلام ٧/٢٧١ ـ ٢٧٨. وبلاشير: تاريخ الادب العربي ١/٧٠

(٢٥٩) انظر عن المصدرين السابقين ٧/٣٤٥ و١/٧٦ على التوالي.

(٢٦٠) ابن ابي شيبة: الكتاب المصنف ٢/٤٩٧ وابو عبيد: غريب الحديث ٤/٤٩، الداني: المحكم ص١٠، السيوطي: الاتقان ٤/١٦٠

وكذا، وكان يقول: «جردوا القرآن ولا تخلطو به»[٢٦١]. كذلك كره هذه الزيادات كل من محمد بن سيرين والحسن البصري (توفيا ١١٠ هـ)[٢٦٢]، لكن الجيل الذي جاء بعد هؤلاء الائمة بدأ يتسامح في تلك الاضافات خاصة انها اصبحت ضرورية احياناً، مثل نقط الاعجام والحركات[٢٦٣]. لان القراءة في المصاحف المكتوبة بالكتابة العربية القديمة الخالية من النقط والحركات امر صعب على غير حفاظ القرآن، وقد يؤدي الى الخطأ في القراءة، ولهذا فكر علماء السلف من التابعين في ايجاد وسيلة تقس الناس اللحن في كتاب الله عز وجل.

وعلامات الحركات التي نجدها فوق الحروف وتحتها في الكتابة العربية سواء كانت في المصاحف او غيرها مرت بمراحل حتى اخذت هذا الشكل. فكانت في المرحلة الاولى على شكل نقط مدورة، بلون يخالف لون الكتابة، ثم المرحلة الثانية غيرت الى هذه العاملات الصغيرة.

ويبدو ان استعمال النقط للحركات قد تم منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثاني من القرن الهجري الاول. وهو عمل مرتبط بالعالم الجليل ابي الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هجرية، فانه قبل وفاته وضع اساس طريقة استعمال النقط للحركات، فيروى انه قال لكاتبه: «خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فاذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، واذا كسرتها فاجعل النقطة في اسفله، فان اتبعت هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى اتى على آخره»[٢٦٤].

وانتشرت هذه الطريقة في تمثيل الحركات، واستمر العمل بها وحدها الى اواخر القرن الثاني الهجري عندما اخترع الخليل الحركات المعروفة اليوم، ولاشك في ان اختراع الخليل حل تدريجياً في الاستعمال.

---

(٢٦١) الداني: المحكم ص١١، والسيوطي: الاتقان ٤/ ١٦٠

(٢٦٢) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٤١، والداني المحكم ص١٠، والسيوطي: الاتقان ٤/ ١٦٠ وانظر القرطبي: الجامع لاحكام القران ١/ ٦٣

(٢٦٣) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٤١ ـ ١٤٢، والداني: المحكم ص١١ ـ ١٢.

(٢٦٤) ابو بكر الانباري: كتاب ايضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ١/ ٣٩. وانظر الداني: المحكم ص٦، والسيرافي: اخبار النحويين البصريين ص١٦، ابو الطيب اللغوي: مراتب النحويين ص١٠، وابن النديم: الفهرست ص٤٠.

وقبل اختراع الخليل لعلامات الحركات تم تنقيط الحروف المتشابهة في الصورة في اواخر القرن الهجري الاول، على يد تلامذة ابي الاسود الدؤلي اذ ينسب هذا العمل الى نصر بن عاصم الليثي (ت.٩٠هـ) ويحيى بن يعمر (ت قبل ٩٠هـ) حيث وضعا النقاط على الحروف ازواجاً وافراداً، وبذلك تميزت صور الحروف المتشابهة، وصار لكل حرف صورة تغاير صورة غيره من الحروف، على مانجده في كتابتنا اليوم(٢٦٥).

وبعد ان حقق تلامذة ابي الاسود هذا التمييز بين الحروف المتشابهة قاربت الكتابة العربية على الاكتمال لكن ظهرت مشكلة اختلاط نقط الحركات بنقط الاعجام رغم اختلاف لون كل منهما، فنقاط الاعجام بنفس لون الكتابة بينما نقاط الحركات بلون آخر. وقد استطاع عالم العربية الخليل بن احمد (ت.١٧٠هـ) ان يحل ذلك الاشكال حين جعل الحركات حروفاً صغيرة بدل النقط، فالضمة واو صغيرة فوق الحرف، والكسرة ياء مردودة تحت الحرف، والفتحة الف مائلة فوق الحرف، ووضع الخليل الى جانب ذلك علامات للهمزة والتشديد والروم والاشمام(٢٦٦).

اما علامات رؤوس الآي فانها اضيفت اولاً على شكل ثلاث نقاط عند رأس الآية ثم تطورت الى دائرة. وظهر في داخلها رقم الاية في فترات متأخرة، كذلك ادخل الناس في المصاحف فواتح السور وارقام الاجزاء ومايشبه ذلك. وقد كره ذلك في باديء الامر بعض علماء السلف، لانه لم يكن معروفاً في المصاحف التي كتبها الصحابة، وتسامح من جاء بعدهم في هذه الزيادات، لانها مما يفيد القاريء ولانها لاتلتبس بنص القرآن(٢٦٧).

وهكذا بمرور السنين اخذ المصحف شكله الاخير بعد ان استوفت الكتابة علامات الحركات ونقط الاعجام، وبعد ان كتبت اسماء السور وعدد الآيات

---

(٢٦٥) انظر ابو احمد العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص١٣، حمزة الاصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف ص٢٧

(٢٦٦) الداني: المحكم ص٦ ـ ٧. ابو الحجاج البلوي: الف باء ١/ ٧٦.

(٢٦٧) انظر الداني: المحكم ص١١، السيوطي: الاتقان ٤/ ١٦٩

وارقامها وغير ذلك، لكن صور الكلمات حافظت على اشكالها التي رسمت بهـا في المصاحف العثمانية، فقد ألف علماء السلف المتقدمون كتباً وصفوا لنا فيها طريقة رسم الكلمات في تلك المصاحف، فحافظ خطاطو المصـاحف على تلـك الاشكال في مختلف العصور الى حد كبير[٢٦٨]. ولعل اشهر تلك الكتب كتاب «المقنع في معـرفة مرسوم مصاحف اهل الامصار» لابي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ، وهو مطبوع.

كذلك ألف علماء السلف في موضوع اعجام الحروف ونقط الحركات وضبطها عـدة مؤلفات أشهـرهـا كتـاب ابي عمـرو الـداني المسمى «المحكم في علم نقط المصاحف»، وهو مطبوع ايضاً.

وقد يسرت الطباعة الحديثة نشر ما لايحصى من النســخ الموحـدة من القرآن الكريم ورغم هذا الاثر غير المحدود لتسهيل نشر المصاحف الذي احدثته الطباعة، فـانها لم تكن ذات أثـر ملحوظ في شكلهـا العام وطـريقة كتـابتها، لان الـرسم المصحفي كان قد اكتمل من جوانبه المتعلقة بحصر اللفظ منذ وقت مبكر بعد ان وضع الخليل بن احمد علامات الحركات وغيرهـا، وبعد ان استخـدمها نسـاخ المصاحف في اتجاهين:

الاول: ساد في المشرق، يغلب على هذا الاتجاه استعمـال الخط المشرقي اللين «النسخ» والعلامات التي وضعها الخليل وأستعملها الكتاب واهل اللغة.

الثاني: هو الاتجاه الذي يمتاز باستعمـال الخط المغربي، ويظهـر ميلاً اكثـر للابقاء على العلامات القديمة، وقد ساد في بلاد المغرب الاسلامي.

ولاتزال آثار هذين الاتجاهين بادية على ما يطبع من مصاحف الى اليوم لكنها في الواقع لا تؤثر في شيء على نص القرآن، الذي يقرأ بطريقة واحدة، بأي الرسمين كتب.

ويكاد ينعقد الاجتماع على ان اول مصحف أخرجته المطابع ورأى النور كان في سنة ١٦٩٤م، الذي وقف على طبعه هنكلمـان، في مدينـة هامبـورج بالمـانيا[٢٦٩]،

---

(٢٦٨) انظر الزركشي: البرهان ١/٢٧٦ والسيوطي: الاتقان ٤/١٤٥

(٢٦٩) حفني ناصف: تاريخ الادب ص١١٢. محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص١٦ و١٨٦، رصبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص٩٩.

وتوالت طباعة المصاحف منذ ذلك التاريخ ودخلت البلاد الاسلامية فظهرت المصاحف المطبوعة في عاصمة الخلافة العثمانية ومصر والهند وغيرها من بلاد المسلمين، وقد طبع المصحف في بلادنا في السنوات الاخيرة.

★★★

وتوجد الان في مكتبات العالم مجموعة كبيرة من المصاحف المخطوطة القديمة او قطع منها، بعضها مكتوب على الرق، وبالخط الكوفي القديم. مجردة من النقط والشكل ومن كثير مما ألحق بالمصاحف من اسماء السور وعدد آيها وغير ذلك، بحيث تبدو اقرب الى الصورة التي كانت عليها المصاحف الاولى[٣٧].

ويثار السؤال القديم مرة اخرى في الوقت الحاضر وهو هل يمكن ان يكون واحد من هذه المصاحف القديمة الباقية احد المصاحف العثمانية الاصلية؟

ان اغلب الباحثين يميل الى استبعاد ذلك، اذ من المتعذر - اليوم - العثور على مصحف كامل كتب في القرن الاول او الثاني وعليه تاريخ نسخه او اسم ناسخه[٣٨]. وكذلك فانها في الغالب غير مجردة تماماً من العلامات التي ادخلت على المصاحف في وقت متأخر. الى جانب ان تأكيد ذلك يحتاج الى أدلة تاريخية ومادية واضحة وقوية، ودراسة متعددة الوجوه وهو مالم يتح للدراسين - بعد - القيام به.

ومهما كان الراي في تلك المصاحف فانها - دون شك - قديمة ترجع الى القرون الهجرية الاولى، بل ربما الى القرن الاول بالذات، خاصة حين لايظهر فيها اي اثر للاصلاحات التي ادخلت على الخط العربي في النصف الثاني من القرن الهجري الاول. الا بعض العلامات النادرة احياناً، وهي بذلك اقرب الى الفترة التي يحتمل ان تكون المصاحف العثمانية موجودة فيها وربما نسخت منها او من مصحف نسخ من احدها. وموضوع هذه المصاحف القديمة لايزال بحاجة الى دراسة مفصلة، تكشف عن كثير من ظواهر رسمها، وتجيب عن بعض ما يثار حولها من اسئلة.



---

(٣٧) انظر جولد تسهر. مذاهب التفسير الاسلامي ص٢٩٨، محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص١١٩ - ١٢٠. ناصر النقشبندي: المصاحف الكريمة في صدر الاسلام مقال في مجلة سومر ١١/ ١٥

(٣٨) ناصر النقشبندي: المصاحف الكريمة ١٢/ ٢٤

وعلى هذا النحو اخذ المصحف الشريف شكله الاخير الذي نجده بين ايدينا، منذ زمن مبكر، ولم يؤد ما أدخل عليه من اضافات في ضبط الكتابة، او بيان اسماء سور وعدد الآيات والاجزاء - الى اية زيادة في النص القرآني او نقصانه، بل زادته تلك الاضافات دقة وضبطاً. فالمسلمون منذ العصر الاول للاسلام الى وقتنا الحاضر يقرؤون القرآن بطريقة واحدة، ولم يؤثر تقادم العصور في النص القرآني فقد هيأ الله سبحانه وتعالى - له اسباب البقاء، حفظاً في الصدور، وكتابة في السطور، منذ زمن النبي - صلى الله عليه وسلم الى عصرنا هذا. وحين ظهرت الطباعة اسهمت في نشر ملايين النسخ من المصحف وايصالها الى يدي الناس في كل مكان.

واذا أخذت مصحفاً، تجده بين يديك، من المصاحف المطبوعة، وحاولت مقارنته باحدى النسخ القديمة من المصاحف المكتوبة على الورق، بالخط الكوفي المجرد القديم، لو جدت النص واحداً، والتطابق بينهما تاماً سوى ان المصحف القديم مكتوب بالخط الكوفي على الرق، والمصحف المطبوع، وهي اختلافات شكلية لا تؤثر في نص القرآن شيئاً.

ويتحقق بكل هذا وعد الله تعالى في حفظه القرآن من التبديل او التحريف، في قوله سبحانه: «انا نحن نزلنا الذكر، وانا له لحافظون»، فالقرآن الكريم حجة الله الباقية في الارض، على مدى العصور، فالله تعالى هو الذي هيأ للقرآن اسباب حفظه حين انزله على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، وحين كتابته على القطع المتفرقة بأمره عليه الصلاة والسلام وحين جمعه في الصحف المنظمة في خلافة ابي بكر الصديق، وحين نسخه في المصاحف في خلافة عثمان. ثم بعد ذلك حين تناقله المسلمون جيلاً بعد جيل، حفظاً في الصدور، وكتابة في السطور، دون تغيير او تبديل وهذه ظاهرة لانجدها قد حصلت في امة اخرى مع كتابها ابداً.

المبحث السادس: معرفة المكي والمدني:

١ ـ تعريف المكي والمدني:

لم ينزل القرآن الكريم جملة واحدة، ولكنه نزل مفرقاً، في ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة منها عاش النبي صلى الله عليه وسلم فيها في مكة، وعشر سنين منها عاشها في المدينة، ومن القرآن ما نزل في مكة ومنه مانزل في المدينة ومنه مانزل خارج مكة والمدينة، ومن القرآن مانزل في الليل، ومنه مانزل في النهار، فكان القرآن ينزل في مختلف الاوقات ومختلف الاماكن.

وقد اهتم العلماء بهذا الجانب من تاريخ القرآن، وتتبعوا السور والآيات يبينون مكان او زمان نزولها، واطلقوا على هذه المباحث «علم المكي والمدني» وذكر السيوطي ان جماعة من العلماء أفردوه بالتصنيف منهم مكي والعز الديرني[٢٧٢].
والف ابو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦ هـ) كتاباً موجزاً سماه «كتاب التنزيل وترتيبه»[٢٧٣]، ذكر فيه خمسة وعشرين وجهاً تتعلق بمكان او زمان نزول القرآن قال فيه[٢٧٤]: «ومن اشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب مانزل بمكة ابتداء ووسطاً وانتهاء، وترتيب مانزل بالمدينة كذلك... فهذه خمسة وعشرون وجها، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له ان يتكلم في كتاب الله عز وجل».

وللعلماء في تعريف المكي والمدني ثلاثة مذاهب[٢٧٥]:
الاول: المكي هو مانزل قبل الهجرة، والمدني هو مانزل بعدها، سواء بمكة أم بالمدينة عام الفتح او عام حجة الوداع، في سفر ام في حضر، والزمان هو اساس هذا التعريف.

---

(٢٧٢) الاتقان ١/٢٢.

(٢٧٣) ذكره الزركشي «البرهان ١/١٩٢»، والسيوطي «الاتقان ١/٢٢» باسم «التنبيه على فضل علوم القرآن». والعنوان الذي اثبتناه هو ما كتب على مخطوطة الكتاب المحفوظة في دار الكتب الظاهرية في دمشق.

(٢٧٤) كتاب التنزيل وترتيبه ورقة ٢١٢ظ ـ ٢٢٢و، وانظر الزركشي: البرهان ١/١٩٢، والسيوطي الاتقان ١/٢٢.

(٢٧٥) الزركشي: البرهان ١/١٧٨ والسيوطي: الاتقان ١/٢٣.

وقد عرف هذا الاتجاه في تعريف المكي والمدني منذ زمن مبكر، فقد روى الداني عن يحيى بن سلام (ت ٢٠٠ هـ) انه قال[٢٧٦]: «ما نزل بمكة وما نزل بطريق المدينة قبل ان يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني».

الثاني: المكي مانزل بمكة، ولو بعد الهجرة، والمدني مانزل بالمدينة اي ان مكان النزول للآية هو الاساس في هذا التعريف، وقد قسم هبة الله بن سلامة البغدادي المفسر (ت٤١٠هـ) المكي الى قسمين، هما[٢٧٧]:

المكي الاول: وهو مانزل في مكة قبل الهجرة.

المكي الاخير: وهو مانزل فيها بعد الفتح.

ولاشك في ان المذهب في التعرف لايشمل كل سور القرآن وآياته، لان من القرآن مانزل خارج مكة والمدينة.

الثالث: المكي ماوقع خطاباً لاهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لاهل المدينة واساس هذا التعريف يعتمد على موضوع الآيات او السور، لكنه لايشمل إلا قسماً يسيراً من القرآن، لان كثيرا من القرآن لم يكن خطاباً لاهل مكة او اهل المدينة.

وقد رجح معظم العلماء التعريف الاول، لانه يقوم على اساس شامل، لان السور او الآيات لابد ان تكون قد نزلت قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة، او بعدها، بغض النظر عن مكان النزول.

٢ ـ كيفية معرفة المكي والمدني:

لم ينقل النبي صلى الله عليه وسلم كان يوقف الصحابة على زمن نزول السور او مكانه، لان ذلك أمر من يعرفه اكثر الصحابة بحكم معايشتهم للدعوة ولنزول القرآن الكريم، وقد ذكر العلماء طريقين لمعرفة المكي والمدني، سماعي وقياسي[٢٧٨].

---

(٢٧٦) الداني: البيان في عد اي القران ورقة ٤٤ ظ.

(٢٧٧) الناسخ والمنسوخ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢٧٨) الزركشي: البرهان ١/ ١٨٩.

فالسماعي ما وصل الينا الخبر بذكر جهة نزوله، وقد قال القاضي ابو بكر الباقلاني[٢٧٩]: «انما يرجع في معرفة المكي والمدني الى حفظ الصحابة والتابعين».

واما القياسي فهو يقوم على جملة ضوابط لتحديد مالم يرد فيه نص من السور، وتتصل تلك الضوابط بأسلوب السور وموضوعاتها، ومن تلك الضوابط:

١ ـ كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية، وكل سورة فيها ذكر القرون الماضية فهي مكية.

٢ ـ كل سورة فيها قصة آدم وابليس فهي مكية، إلا البقرة.

٣ ـ كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية سوى العنكبوت.

٤ ـ كل سورة فيها «كلا» فهي مكية.

٥ ـ كل سورة في اولها الحروف المقطعة فهي مكية، إلا البقرة وآل عمران وفي الرعد خلاف.

٦ ـ ما كان في القرآن «ياأيها الذين آمنوا» فهو مدني، وماكان «ياأيها الناس» فمنه مكي ومدني، واكثره مكي.

وهذه الضوابط مستخلصة من عدة روايات عن الصحابة والتابعين، وبعض العلماء المتقدمين[٢٨٠].

٣ ـ اهمية معرفة المكي والمدني:

هذا البحث التاريخي في سور القرآن وآياته له فوائد عدة في مجال الدراسة القرآنية وما يتصل بها، منها[٢٨١]:

١ ـ تتوقف معرفة الآيات الناسخة والمنسوخة على معرفة منازل اولا، قال أبو جعفر النحاس[٢٨٢]: «وانما نذكر منازل بمكة لأن فيه أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ ،لأن الآية

---

(٢٧٩) السيوطي: الاتقان ١/٢٣.

(٢٨٠) الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٩٤ والداني: البيان في عد اي القرآن ورقة ٤٤و.

(٢٨١) انظر. مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص٥٩ ـ ٦٠

(٢٨٢) النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٢١٤. وانظر الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٩٠.

إذا كانت مكية ، وكان فيها حكم ، وكان في غيرها حكم غيره ونزل بالمدينة ، علم أن المدنية نسخت المكية)

٢ ـ ان تتابع الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والمدني،منذ بدأ وحي القرآن حتى آخر آية نزلت، والقرآن من هذه الناحية يعَد المرجع الاصيل لدراسة السيرة النبوية وترتيب السور زمنياً يمكننا من تصور تاريخ السيرة تصوراً اكثر جلاء في ضوء الآيات القرآنية الكريمة.

٣ ـ ان تتبع السور المكية والمدنية والنظر في موضوعاتهاواسلوبهايقفنا على المنهج الذي رسمه القرآن للدعوة في مراحلها المختلفة، ففي مكة نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ليخاطب اناساً غلبت عليهم مظاهر الجاهلية في العقيدة والاخلاق، وفي الاقتصاد والاجتماع على السواء، فجاء القرآن يريد ان يغير ذلك كله الى عبودية خالصة لله وحده، فتتلقى البشرية منه نظامها الذي ارتضاه لها، ولهذا فقد جاء اسلوب السور المكية، خاصة ما نزل اولاً، اسلوباً قوياً زاجراً، فهذه الآيات القصار، وهذه الفواصل المتداركة، وهذه الصور الباهرة، اسلوب يشد اليه الاسماع والالباب، فكان هذا الاسلوب القرآني المعجز هو الذي فتح آذان وقلوب العرب ليسمعوا القرآن ويتدبروا معانيه، ويؤمنوا بما جاء به.

وكانت موضوعات السور المكية تتحدث عن قضية واحدة، هي قضية العقيدة وان تعددت سور عرضها، فقد كان القرآن المكي يفسر للانسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله ولم يتجاوز القرآن المكي المعاني الاساسية في قضية العقيدة الى غيرها من تفاصيل النظام وامور الحلال والحرام، إلا قليلاً، فلما استقرت تلك المعاني في قلوب العصبة المؤمنة التي آواها الله تعالى الى المدينة المنورة، حيث كوّن رسول الله صلى الله عليه وسلم نواة المجتمع الاسلامي والدولة المسلمة الاولى، عندها انزل الله تبارك وتعالى من القرآن ما يبين تفاصيل نظام الحياة في المجتمع المسلم، فجاءت السور المدنية تبين الفرائض والحدود بأسلوب مترسل متمهل، وهكذا حققت السور المكية دورها في بناء القاعدة التي يقوم عليها بناء الاسلام، وحققت السور المدنية دورها في تثبيت تفاصيل ذلك النظام.

٤ ـ ترتيب السور المكية والسور المدنية:

عـرفت من قبل ان تـرتيب السور في المصحف لم يكن تـرتيباً زمنيـاً بحسب النزول، وكذلك لم ترتب الآيات في السور ترتيباً زمنياً بحسب النزول، وانمـا ألف القرآن على ماكانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام العلماء بجهود ليست قليلة لترتيب السور بحسب النزول، أما ترتيب الآيات على ذلك النحو فلم يفكروا فيه، لصعوبة ذلك، على نحو ماتوضحه هذه الروايـة: قال محمـد بن سيرين، قلت لعكرمة: ألفوه كمـا أنزل الاول فـالاول. فقال عكـرمة: لـو اجتمعت الانس والجن عـلى ان يؤلفوه ذلـك التأليف مـا استطـاعـو قـال محمـد: وأراه صادقاً[٢٨٣].

وكانت تلك الجهود اكثر توفيقاً في محاولة ترتيب السور اجمالاً على ذلك النحو، معتمدين على نزول أول السورة او معظمها، وقد روى عن ابن عباس انه: «كانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء»[٢٨٤].

وقد وصلتنا عدة روايات عن الصحابة والتابعين في بيان السور المكية والسور المدنية: عن عبـدالله بن عبـاس، وابي الشعثاء جـابر بن زيـد والحسن بن ابي الحسن، وقتادة، وعلي ابن ابي طلحة[٢٨٥].

ولعل اشهر الروايات في ذلك ما نقله ابن الضريس في كتابه «فضائل القرآن» عن ابن عباس انه قال: «اول ما نزل من القرآن بمكة، وما أُنزِلَ منه بالمدينـة، الأول، فالأول فكانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان اول مانزل من القرآن اقرأ باسم ربك.. ثم انزل بالمدينـة سورة البقـرة، ثم الانفال، ثم آل عمران، ثم الاحـزاب، ثم الممتحنة، ثم النسـاء، ثم اذا زلزلت، ثم الحديد، ثم سورة محمد «القتال» ثم الرعد، ثم سورة الـرحمن، ثم هل اتى عـلى

---

(٢٨٣) انظر: ابن الضريس: فضائل القران ١/٦٧و.

(٢٨٤) المصدر نفسه ١/٦٦و. وانظر السيوطي: الاتقان ١/٢٦.

(٢٨٥) انظر : الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٩٥. ابن النديم: الفهرست ص٢٥. والداني: البيان ورقة ٤٤ظ ـ ٤٥و. والزركشي: البرهان ١/١٩٣ ـ ١٩٤. والسيوطي: الاتقان ١/٢٤ ـ ٢٩.

الانسان ثم يا أيها النبي اذا طلقتم، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم اذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة،ثم الحجرات، ثم لم تحرم ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الحواريون «الصف» ثم الفتح، ثم المائدة، ثم التوبة، فذلك ثمان وعشرون سورة.....»[٢٨٦].

---

(٢٨٦) فضائل القران ١/ ٦٥ظ، وانظر السيوطي: الاتقان ١/ ٢٦

الفصل الثالث

المحكم والمتشابه

القرآن الكريم كتاب مبارك انزله اللّه تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور، فبين معالم التوحيد واخلاص العبودية لله تعالى، وحكى قصة خلق الكون والانسان، واخبار القرون الماضية، بما فيه العبرة للناس، وبين اصول العبادات والمعاملات للمجتمع المسلم، وأنبأ عن مستقبل البشرية وكيفية نهاية الحياة وكشف الستر عن حجب الغيب فأطلع البشرية على اخبار القيامة والبعث والحساب والجنة النار، وشف عن بعض اسرار الكون وحقائقه بما يتناسب وقابلية البشر وادراكهم، ورمز الى امور اخرى ليست من مدركات العقل البشري استأثر اللّه بعلمها وحجبها عنا في الحياة الدنيا، ومن هنا أحس العلماء امام هذا الشمول القرآني ان في القرآن آيات لا يستطيع الانسان تصور معناها بأكثر مما يدل عليه ظاهر ألفاظها، عرفت في مجال الدراسة القرآنية باسم «الآيات المتشابهة»، وماسواها من سائر القرآن واضحة الدلالة بينة المعنى، وعرفت باسم «الآيات المحكمة»[٢٨٧].

وقد استند العلماء في هذا التقسيم الى قوله تعالى في سورة آل عمران «الآية٧»: «هو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ، منه آياتٌ محكماتٌ هُن امُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ، فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فَيَتبّعونَ ما تشابهَ منه، ابتغاء الفتنةِ وابتغاء تأويله، وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللّهُ. والراسخون في العلمِ يقولونَ امنَّا به كُلٌّ مِن عندِ رَبِّنا وما يَذّكرُ إلا أولو الألباب».

(٢٨٧) قال الله تعالى: «كتاب احكمت اياته، ثم فصلت، من لدن حكيم خبير» (هود ١). وقال تعالى: «الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً» (الزمر ٢٣) والمراد باحكامه في الآية الاولى اتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف اليه. والمراد بتشابهه في الآية الثانية كونه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والاعجاز. والقرآن من هذه الناحية محكم ومتشابه جميعه، وهو غير المعنى الذي نريد ان نتحدث عنه في هذا الموضوع. «انظر السيوطي: الاتقان ٣/٢».

وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية، والآيات التي في اول سورة آل عمران، ان وفد نصارى نجران قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فخاصموه في طبيعة عيسى بن مريم عليه السلام بأن قالوا: ألست تزعم ان عيسى روح الله وكلمته، وتأولوا في ذلك مايقولون فيه من الكفر، فانزل الله عز وجل فيهم سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها[288].

ولاشك في ان نص الآية أعم من هذه المناسبة، فهي تصور موقف الناس على اختلافهم من القرآن، فالذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة يتركون الاصول الواضحة الدقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهج العلمي للحياة الاسلامية، ويجرون وراء المتشابه الذي يعول في تصديقه على الايمان بصدق مصدره، والتسليم بأنه هو الذي يعلم الحق كله، بينما الادراك البشري نسبي محدود المجال.

واما الراسخون في العلم الذين بلغ من علمهم ان يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشري وحدود المجال الذي يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة له، فهم يقولون: «آمنا به كل من عند ربنا»[289].

وعلى هذا النحو فهم علماء السلف الآية الكريمة السابقة من سورة آل عمران، فقال عبيدة بن عمرو السلماني «ت٧٢هـ»[290]: من أين يعلمون تأويله؟ وانما انتهى علم الراسخين الى ان قالوا: «آمنا به كل من عند ربنا».

وسئل الامام مالك عن قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلا اللّه»، أيعلم تأويله الراسخون في العلم؟ قال: لا، وانما معنى ذلك أن قال: وما يعلم تأويله إلا اللّه، ثم أخبر فقال: والراسخون في العلم يقولون: «آمنا به، كل من عند ربنا» وليس يعلمون تأويله[291].

---

(٢٨٨) الواحدي اسباب نزول القرآن ص ٩٠. وانظر الطبري جامع البيان ٣/ ١٧٧
(٢٨٩) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/ ٣٦٩.
(٢٩٠) الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٢٩.
(٢٩١) المصدر نفسه ص٣٣٠.
(٢٩٢) جامع البيان ٣/ ١٧١

وقال الطبري[٢٩٢]: المحكم من آي القرآن ماعرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه مالم يكن لاحد الى علمه سبيل. مما استأثر اللّه بعلمه دون خلقه والراسخون في العلم يقولون: «آمنا به، كل من عند ربنا» لا يعلمون ذلك، ولكن فصل علمهم في ذلك على غيرهم، العلم بأن اللّه هو العالم بذلك دون سواه من خلقه.

وقد ذهب الاكثرون من الصحابة والتابعين واتباعهم ومن بعدهم الى ان الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، وذهب القليل الى عكس ذلك[٢٩٣].

ويدل على صحة مذهب الاكثرين امور منها[٢٩٤].

١ ـ ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: «هو الذي انزل عليك الكتاب...» وقال: «فاذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فاولئك الذي سمى الله فاحذروهم.».

٢ ـ ما أخرجه عبدالرزاق في تفسيره، والحاكم في مستدركه عن ابن عباس انه كان يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون في العلم آمنا به» وهذه الآية، وان لم تثبت بها القراءة لعدم تواترها، ومخالفتها لخط المصحف، اقل درجاتها انها تفسير صحيح عن ابن عباس، ترجمان القرآن رضي الله عنه.

٣ ـ ويزيد ذلك ان الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم الى الله، وآمنوا بما انزل، محكمه ومتشابهه.

وبناء على رأي الاكثرية في تفسير الآية تكون الواو في قوله: «والراسخون في العلم يقولون» للاستئناف، ويكون مابعدها جملة مكونة من مبتدأ وخبر، وتكون الواو على رأي غيرهم للعطف، وهو خلاف ماذهب اليه جمهور اهل العلم[٢٩٥].

وينص علماء الوقف والابتداء على ان الوقف التام في الآية يكون عند قوله: «وما

---

(٢٩٣) رُويَ عن مجاهد وقتادة انهما يذهبان الى ذلك، ولكنهما يفسران المتشابه بغير ما فسره به الجمهور، فعند مجاهد هو الآيات التي يصدق بعضها بعضاً «انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/٢٠٩»، وعند قتادة هو المنسوخ «انظر: الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص ٣٢٩».

(٢٩٤) انظر السيوطي: الاتقان ٣/٥ ـ ٨.

(٢٩٥) الطبري: جامع البيان ٣/١٨٢ والقرطبي: الجامع لاحكام القرآن ٤/١٦

يعلم تـأويلـه إلا اللّـه «ثم يستـأنف القـاريء بعد ذلـك قـراءتـه بقـولـه «والراسخون...»[٢٩٦].

وعلى اساس من تلك الحقيقة القائلة بـأن في القرآن آيـات متشابهـة لا يعلم تأويلها إلا الله ـ جعل اهل التفسير القرآن على ثلاثة أوجه[٢٩٧].

أحدها: مالا سبيل للوصول الى تأويله، وهو الذي استأثر الله بعلمـه، وحجب علمه عن سائر خلقه.

الثاني: مالا يوصل الى تفسيره إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الثالث: ما كان علمه عند اهل العلم باللسان الذي نزل به القرآن.

وقد ورد بهذا المعنى أثر منقول من عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقد رُوِيَ انه قال[٢٩٨]: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر احد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله».

ويكفي هنا ان نشير الى مثال واحد يـذكره العلمـاء في متشابـه القرآن، وهـو الحروف المقطعة في اوائل بعض السور، مثـل، ص، ق، ن، حم، طس ، يس،الم، وغيرها.

وقد تباينت آراء العلماء في تحديد معنى هذه الحروف، فمن قائل انه لاسبيل الى معرفة معانيها، الى قائل ان كل حرف منها يدل على معنى او اسم، ويذهب في تحديد ذلك المعنى مذاهب شتى، وتتلخص تلك الآراء في[٢٩٩]:

١ ـ ان تلك الحروف اسماء للقرآن.

٢ ـ انها اسماء للسور.

٣ ـقسم اقسم الله به.

---

(٢٩٦) ابو بكر الانباري: ايضاح الوقف والابتداء ٢/٥٦٥.

(٢٩٧) انظر: الطبري: جامع البيان ١/٣٢، ١/٤١، والسيوطي: الاتقان ٤/١٩١.

(٢٩٨) الطبري: جامع البيان ١/٣٤، وانظر: الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٢٩. والـزركشي: البرهـان ٢/١٦٤.

(٢٩٩) انظر: الطبري: جامع البيـان ١/٨٦ ـ ٨٩، والزجـاج: معاني القـرآن واعرابـه ١/١٨ والقرطبي: الجامع لاحكام القرآن ١/١٥٤، والزركشي: البرهان ١/١٦٥، والسيوطي: الاتقان ٣/٢١.

٤ ـ انها تدل على معان، وكل حرف مقتطـع من اسم او فعل، وقـد روي عن ابن عبـاس ان معنى «الم»: انا الله أعلم، وروى عن غـيره: الالف: مفتـاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، وان الميم مفتاح اسمه مجيد، وقـال آخرون انّ هـذه الحروف هي اسم الله الاعظم.

٥ ـ انها تدل على حساب الجمل، الذي ينبني على اساس ان لكل حرف في الترتيب الابجدي قيمة رقمية، فيكون كل حرف من الحروف المقطعة يدل على قيمته الرقمية فيستدل بذلك على آجال قوم او مدتهم.

٦ ـ ذهب بعض علماء العربية الى ان هذه الحـروف استغني بذكـرها عن ذكـر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، لتدل على ان هذا القرآن مؤلف من حروف العربية التي منها كلام العرب، ليكون عجزهم عن القرآن ابلغ حجة عليهم.

٧ ـ روي عن قطرب «محمد بن المستنير ت ٢٠٦هـ» انه قال: يجوز: لما لغا القوم في القرآن فلم يتفهموه حين قالوا: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغـوا فيه» (فصلت ٢٦) أنزل ذكر هذه الحروف، فسكتـوا لما سمعـوا الحروف طمعـاً في الظفر بمـا يحبون ليفهموا ـ بعد الحروف ـ القرآن وما فيه، فتكون الحجـة عليهم أثبت اذا جحدوا بعد تفهم وتعلم.

٨ ـ انها فواتح يفتح الله بها القرآن.

٩ ـ انها سر لا يمكن الوصول الى حقيقة معناه، وانها من المتشابه الذي أمرنا ان نؤمن به كما أنزل، كما بينت الآية الكريمة: «هو الذي انزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن ام الكتاب، واخر متشابهات، فأمـا الذين في قلـوبهم زيغ فيتبعـون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كل من عند ربنا، وما يذكر إلا اولو الالباب». (آل عمران٧).

جاء في تفسير القرطبي[٢٠٠]: قال عامر الشعبي وسفيـان الثوري وجمـاعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمـه، ولايجب ان يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها، ونقرأها كما جاءت، وقال ابو حاتم: لم نجد

---

(٢٠٠) الجامع لاحكام القرآن ١/ ١٥٤.

الحروف المقطعة في القرآن إلا في اوائل السور، ولاندري ما اراد الله عز وجل بها.

١٠ ـ وفي السنين الاخيرة من وقتنا الحاضر ظهرت محاولة جديدة لدراسة الحروف المقطعة وبيان علاقتها بالسور التي تأتي في اوائلها، وتتلخص تلك المحاولة، التي تعتمد على الحاسب الالكتروني، في ان استهلال سورة ما بحروف معينة يقابله دائماً تفوق حسابي لمعدل توارد وتكرار هذه الحروف في السورة نفسها، ففي سورة «ق، والقرآن المجيد» مثلاً، نجد ان الحرف «ق» يتكرر في السورة بمعدل اعلى من باقي الحروف، ثم ان معدله في السورة هو اعلى معدل في سور القرآن على الاطلاق.

والشيء نفسه في «الم» في البقرة، حيث تأتي معدلات ورود هذه الحروف الثلاثة في سلم تنازلي من (أ) الى (ل) الى «م»، وبالترتيب نفسه، على هذا النحو:

(أ) وردت ٤٥٩٢ مرة.
(ل) وردت ٣٢٠٤ مرة.
(م) وردت ٢١٩٥ مرة.

وهكذا تطبق هذه القاعدة ـ بصورة عامة ـ على كل الحروف المقطعة[٣٠١].

وهذه ملاحظة مهمة ظلت مخبوءة الى وقتنا الحاضر، إذ اكتشفت بالحساب الدقيق لحروف القرآن، لتضع امام الناس دليلاً جديداً على ان هذا القرآن، من لدن حكيم خبير: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم، حتى يتبين لهم انه الحق» (فصلت ٥٣).

وكان الزركشي (ت ٧٩٤هـ) قد ألمح في كتابه «البرهان» الى شيء من هذه المحاولة الاخيرة، لكنه لم يعتمد الاحصاء والتتبع، وانما اكتفى بذكر ذلك على شكل ملاحظة عابرة حيث يقول[٣٠٢]: «وتأمل السور التي اجتمعت على الحروف المفردة: كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك «ق، والقرآن

---

(٣٠١) انظر التفصيل: مصطفى محمود: من اسرار القرآن ص٦١ وما بعدها.
(٣٠٢) البرهان ١/١٦٩ ـ ١٧٠.

المجيد» فان السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرار القول... وغير ذلك واذا اردت زيادة ايضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات... وكذلك سورة «ن والقلم» فان فواصلها كلها على هذا الوزن، مع ماتضمنت من الالفاظ النونية».

★★★

ومهما قال العلماء والمفسرون في معنى الحروف المقطعة فانه لا يمكن القطع على احد تلك الاقوال بانه هو المقصود معناه دون غيره، لانه لم يرد نص يبينها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً، ولانه مامن قول سبق لبيان معناها إلا ويمكن القول فيه انه ليس اولى من غيره بالاعتبار ثانياً، لكن هناك اموراً جديرة بالملاحظة عند البحث في معاني هذه الحروف، منها: ان معظم السور المفتتحة بالحروف المقطعة مكية النزول، إلا البقرة وآل عمران، ثم ان ما يرد بعد تلك الحروف في السور المفتتحة بها هو ذكر القرآن الكريم او ذكر بعض مايتعلق به، إلا في العنكبوت والروم، ثم الامر الاخير الجدير بالملاحظة هو ماكشفت عنه المحاولة الحديثة من بعض اسرار تلك الحروف، وان كانت لا تفسر كل شيء عنها، والقول بأن هذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى لايمنع ذلك من دراستها ومحاولة كشف بعض اسرارها، اذا كانت الدراسة مبنية على اسس علمية واضحة.

الفصل الرابع
معرفة الناسخ والمنسوخ

١ ـ تعريف النسخ وبيان أهمية معرفته:

عرفت من قبل ان القرآن الكريم لم ينزل مرة واحدة، ولكنه انزل مفرقاً، على مدى سنين كثيرة، وعرفت ايضاً ان في ذلك التنزيل المفرق للقرآن حكمة تربوية عملية كبيرة، وهي اعداد النفوس المؤمنة حتى تتلقى الاحكام الشرعية بالتسليم والرضا، فكان حال المؤمنين كما قال الله تعالى: «انما كان قول المؤمنين اذا دُعُوا الى ٱللَّه وَرَسُولِهِ لِيَحكمُ بَينهَم أن يقولوا سَمِعنَا واطعنا، وأولـئكَ هُمُ المفلِحون» (النور ٥١)، من تلك الحكمة ان الله تعالى جعل تطبيق الاحكام متدرجاً، خاصة تلك التي اخذت شكل عادات شعورية في المجتمع، فكان استئصال بعض مظاهر الانحراف الاخلاقي والاجتماعي قد تم في مرحلتين او ثلاث، والقرآن الكريم يوجه المسلمين خلال ذلك ـ وينقلهم الى الحكم الاخير في القضية.

والتدرج في تطبيق الاحكام الشرعية على ذلك النحو يسمى النسخ، وتسمى الآية التي تتضمن حكماً قد تغير منسوخة، والآية التي تتضمن حكماً غير حكم آخر في آية اخرى تسمى ناسخة.

والنسخ في اصل اللغة يطلق على معنيين، الاول: الازالة، تقول العرب: نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ، اي ازالته وحلت محله، والثاني: نقل الشيء من مكان الى مكان، دون تغيير فيه، ومنه نسخ الكتاب، وهو ان تكتب كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف وكلمة بكلمة[٣٠٣].

وتعريف النسخ في اصطلاح الشريعة، في القول المختار، هو: «رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه»[٣٠٤]. وهذا المعنى الشرعي يتصل بالمعنى اللغوي الاول للنسخ[٣٠٥].

---

(٣٠٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة «نسخ».

(٣٠٤) مصطفى زيد: النسخ في القرآن الكريم ١/ ١٠٥ وعبدالكريم زيدان الوجيز في اصول الفقه ص٣٢٩.
وانظر تفصيلات لمناقشة تعريف النسخ: الآمدي: الاحكام في اصول الاحكام ٣/ ٩٨.

(٣٠٥) مكي بن ابي طالب: الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٤٢.

والنسخ من الامور التي يسر الله بها على المؤمنين ـ وقت تنزيل القرآن ـ في تطبيق الاحكام. وقد قال الله تعالى «ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها. الم تعلم ان آللّه على كل شيء قدير» (البقرة ١٠٦)[٢٠٦].

فهذه الآية تبين بيناً حاسماً في شأن النسخ، فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الاحوال ـ في فترة الرسالة ـ هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير اكبر تقتضيه أطوار حياتها، والله تعالى خالق الناس، ومرسل الرسل، ومنزل الآيات، هو الذي يقدر هذا وهو الذي يختار الانسب لعباده، وهو الذي يعلم ما يصلح لهم في كل موقف، قال الله تعالى: «واذا بَدلنا آية مكانَ آية، وآللّهُ أعلمُ بما يُنَزِّلُ، قالوا: إنما أنتَ مُفتر، بل أكثرهُم لا يعلمونَ قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من رَّبِّكَ بالحقِ، لِيُثَبِّتَ الذين آمنوا، هُدىً وبشرى للمسلمين» (النحل ١٠١ ـ ١٠٤).

ومعرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن من الامور التي نص العلماء على ضرورة توفرها عند كل من يريد تفسير القرآن، او البحث في احكامه، وقالوا:[٢٠٧] «لا يجوز لاحد ان يفسر كتاب الله الا بعد ان يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد رويت في ذلك اخبار عن عدد من الصحابة[٢٠٨].

٢ ـ الفرق بين النسخ والبداء:

لا يذهبن بك الخيال الى تصور ان النسخ نوع من البداء، وهو استصواب شيء عُلِمَ بعد ان كان غير معلوم، لان ذلك على على الله غير جائز[٢٠٩]. والله سبحانه هـو القائل: «واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينـزل...» فالله يعلم ان المنسـوخ

(٢٠٦) قرا ابن كثير وابو عمرو ـ من القراء السبعة ـ «او ننساها» بالهمزة مع فتح النون والسين. وقرا الباقون «ننسها» بغير همزة مع ضم النون وكسر السين «الداني: التيسير ص٦٦» وتأويل القراءة الاولى: نؤخرها فلا ننسخها. وتأويل القراءة الثانية يحتمل ان يكون من النسيان، وان يكون بمعنى الترك مثل قوله تعالى «نسوا الله فنسيهم»، يعني تركوا الله فتركهم «انظر الطبري: جامع البيان ١/ ٤٧٥». وقال الامام الشافعي: ان معنى «نسخ» ترك فرضه «الرسالة ص٦٤». وفسر ابن عباس قوله تعالى «نأت بخير منها او مثلها» فقال: نجعل لكم مكانها انفع منها واخف عليكم. او مثلها في المنفعة. «النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٦».

(٢٠٧) الزركشي: البرهان ٢/ ٢٩، السيوطي: الاتقان ٢/ ٥٩

(٢٠٨) انظر: الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٢٧. والنحاس: الناسخ والمنسوخ ص٤ ـ ٥.

(٢٠٩) ابن منظور لسان العرب مادة «بدو».

سوف يكون منسوخاً قبل انزاله، لحكمة يعلمها، وهو الذي «يعلمُ خائنةَ الاعين وما تُخفِي الصدورُ» (اغافر ١٩). وهو القائل: «ما أصابَ مِن مصيبةٍ في الأرض ولا في انفسِكُم، الا في كتاب، مِن قبلِ أن نبرأها» (الحديد ٢٢).

فالفرق بين النسخ والبداء هو النسخ معلوم عند الله تعالى وليس الأمر ان الله تعالى ينزل الآية او الحكم، ثم ينظر بعد ذلك هل ينسخه او يقره فهذا لا يجوز بحق الخالق سبحانه، بل ان الله ينـزل الآيات ويعلم مـا سينسخ منهـا، ويعلم الآيات الناسخة لها، حتى قبل أن ينزل القرآن. اما البداء فهو امر خاص بالبشر، ذلك ان الانسان قد يرى اليوم رأياً، ثم يبدو له ويتضح ان ذلك الرأي غير صواب، فيرجع عنه، وهو حين اعتقد ذلك الراي اولاً، كان يتصور انه هو الحق الذي لا حق غيره، فاذا الامر يتكشف له بعد ذلك على غير ما اعتقد، وهذا خاص بالبشر لقصور العقل البشري عن الاحاطة او العلم بما سيقع في المستقبل، اما النسخ في القرآن فـانه واقع بعلم الله وتقديره، رحمة بالناس وتيسيراً عليهم[٣١٠].

٣ ـ ما يجوز ان يقع فيه النسخ:

النسخ لا يقع الا في الإحكام، في الامر والنهي والحدود والعقوبـات في احكام الدنيا[٣١١]. اما الاخبار ـ بكسر الهمزة ـ بما كان او ربما يكون فلا يجوز ان يقع فيه النسخ[٣١٢].

فالنسخ لا يقع في الامور الاعتيادية التي ينبني عليها الايمان، مثل توحيد الله تعالى، او اسماء الله وصفاته الحسنى، ولا يقع النسخ ايضاً فيما اخبرنا الله تعالى به في القرآن انه وقع، من اخبار خلق آدم واخبار الانبياء والامم الماضية، او انه سيقع من قيام الساعة وبعث الناس، وحسابهم، ثم الجزاء بالجنة او النار.

هذه امور لايتطرق اليها نسخ، وهي واقعة كما اخبرنا الله تعالى بها، ما وقع وما سوف يقع، لكن النسخ وقع في احكام الشريعة التي تتضمن امراً او نهياً، بحسب تقدير الله تعالى، وما جرى في علمه من المصلحة في ذلك للناس[٣١٣].

---

(٣١٠) انظر الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٦٠. والنحاس الناسخ والمنسوخ ص٩

(٣١١) الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٥٩

(٣١٢) النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٢٥٨

(٣١٣) انظر في هذا الموضوع. الحارث المحاسبي فهم القرآن ص٢٣٢، والنحاس: الناسخ والمنسوخ ص٢٥٨، ومكي الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٥٦

٤ - كيفية معرفة الناسخ والمنسوخ:

معرفة الآيات المنسوخة والآيات الناسخة في القرآن تتوقف على النقل الصحيح عن الصحابة، فالنسخ انتهى وقوعه بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهاء نزول القرآن، ولا يقع النسخ في احكام الشريعة بعد ذلك «انما يرجع في النسخ الى نقل صريح من رسول الله صلى الله عليه وسلم او عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا، وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به، من علم التاريخ. فيعرف المتقدم والمتأخر، ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح، ولا معارضة بينة، لان النسخ يتضمن رفع حكم واثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم والمعتمد في النقل الصحيح والتاريخ دون الرأي والاجتهاد».

٥ - حكم الآيات المنسوخة:

وما نسخ من القرآن الكريم من آيات حكمه في التلاوة حكم الآيات غير المنسوخة، فهو مثبت في المصحف متلو بالالسنة، فالآية الناسخة والآية المنسوخة كلتاهما كلام الله سبحانه، واجب على العباد ان يؤمنوا به انه حق، وانه من القرآن، وانه ليس هناك من فرق بين الآية الناسخة والآية المنسوخة سوى أن الثانية سقط فرضها اي حكمها لكن نصها ثابت يتلى مثل سائر القرآن[٣١٤].

وقد ذكرنا من قبل الحوار الذي وقع بين عثمان بن عفان وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فقد روى البخاري عن عبد الله انه قال: قلت لعثمان بن عفان «والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم وَيذَرونَ أزواجاً» قد نسختها الآية الاخرى، فلم تكتبها؟ قال: يا ابن اخي، لا يغير شيئاً منه من مكانه[٣١٥]. فالآية المنسوخة مثل الآية الناسخة في كونها آية من القرآن مكتوبة في المصاحف جارية على الالسنة في التلاوة[٣١٦].

---

(٣١٤) السيوطي. الاتقان ٣/ ٧١.
(٣١٥) انظر الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٦٦.
(٣١٦) انظر ابن حجر. فتح الباري ٨/ ١٩٣ و٢٠١.

٦ ـ من امثلة النسخ:

موضوع النسخ في الشريعة الاسلامية عامة، والنسخ في القرآن خاصة، حظي بجهود كبيرة من العلماء المسلمين، فكتبوا في الموضوع الكتب الكثيرة التي بينوا فيها معنى النسخ واحكامه، والآيات المنسوخة والناسخة، وما اختلف فيه العلماء من ذلك، ولعل اشمل كتاب معروف اليوم في ذلك هو كتاب «النسخ في القرآن الكريم» للدكتور مصطفى زيد. ويكفيك هنا ان تطلع على مثال واحد من امثلة النسخ في القرآن، لكي تتضح لك الحكمة التشريعية التي تحققت وما كان في ذلك من المصلحة للمسلمين.

كان شرب الخمر معروفاً بين العرب قبل الاسلام، وشاء الله تعالى ان يطهر مجتمع المؤمنين من هذا المرض الخطير، الجالب لكل شر مستطير. والامر او النهي حين يتعلق بقاعدة من قواعد التصور الايماني اي بمسألة اعتقادية، فان الاسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللحظة الاولى، ولكن عندما يتعلق الامر او النهي بعادة وتقليد او بوضع اجتماعي معقد، فان الاسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج، ويهيىء الظروف الواقعية التي تيسر التطبيق.

وقد كان الامر في الخمر، وكذلك في الميسر، امر عادة والف، والعادة تحتاج الى علاج، فبدأ القرآن بتحريك الوجدان الديني والمنطق التشريعي في نفوس المسلمين، بان الاثم في الخمر والميسر اكبر من النفع، وفي هذا ايحاء بأن تركهما هو الاولى، قال الله تعالى: «يسألونكَ عن الخمرِ والميسر، قل: فيهما إثْمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس، وإثْمهُما اكبرُ مِن نفعِهما» (البقرة ٢١٩).

ثم جاءت الخطوة الثانية بنزول آية سورة النساء، وهي قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سُكَارَى، حتى تعلموا ما تقولون» (النساء ٤٣). والصلاة خمسة اوقات في اليوم معظمها متقارب لا يكفي ما بينهما للسكر والافاقة، وفي ذلك تضييق لفرص تعاطي الخمر، وكسر لعادة الادمان عليها.

حتى اذا ما تمت هاتان الخطوتان ونفرت نفوس المسلمين من الخمر جاء النهي الجازم الاخير بتحريم الخمر والميسر وغيرهما في قوله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا انما الخمرُ والمَيسرُ والانصاب وَالازلامُ رِجْسٌ مِنْ عَملِ الشيطانِ فاَجتنبوه، لعلكم

تفلحون. انما يريدُ الشيطانُ أن يُوقِعَ بينَكُمُ العداوةَ والبغضاء في الخمر والميسر ويُصدَّكم عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاةِ، فهل أنتم منتهون» (المائدة ٩٠ ـ ٩١).

وبذلك نسخت آيات سورة المائدة حكم الآيات السابقة في الخمر، فحرمت الخمر، وانتهت تلك العادة في المجتمع المسلم، ولا يمكن لاحد ان يحتج بآية سورة النساء على جواز شرب الخمر في غير أوقات الصلاة، لانها منسوخة بآية المائدة التي حرمت شرب الخمر تحريماً مطلقاً[٣١٧]. وقد قال من كان يشربها من المسلمين حين سمع «فهل انتم منتهون؟»، قال: انتهينا[٣١٨].

وكان وفد ثقيف حين قدم المدينة، سنة تسع من الهجرة، طلب رئيسهم عبد ياليل بن عمرو من رسول الله صلى الله عليه وسلم في امور ذكرها، ان يترك لهم شرب الخمر، بعد ان يسلموا، قال عبد ياليل: أفرايت الخمر؟ فإنها عصير أعنابنا، لابد لنا منها، قال صلى الله وسلم فان الله قد حرمها، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس..» الآية[٣١٩].

وهكذا أتى المنهج الرباني في بناء العقيدة وتهذيب النفوس هذه النتيجة الباهرة في اقتلاع عادة شرب الخمر من نفوس المؤمنين، وتخليص المجتمع من شرورها وآثامها.

---

(٣١٧) انظر النحاس. الناسخ والمنسوخ ص٢٩، ١٠٧

(٣١٨) الطبري: جامع البيان ٧/٢٣

(٣١٩) انظر الواقدي: كتاب المغازي ص٩٦٦ ـ ٩٦٧.

الفصل الخامس
قراءة القرآن الكريم

المبحث الاول: قراءة القران والمسالة اللغوية:

ان قراءة القرآن الكريم، من حيث أصوات منطـوقة، تُعـدُّ نوعـاً من النشاط اللغوي الذي تنطبق عليه القوانين اللغوية، والقرآن منزل باللغة العربية، كما هو معروف، وقد نصت آيات كثيرة في القرآن على ذلك. لكن اللغة العربية كـانت، ولا تزال تتميز على السنة كل مجموعة من العرب بميزات في النطق والكلمات، مما جعل الدارسين يسمون نطق كل مجموعة لهجة، فكانت اللغة العربية وقت نزول القرآن تتألف من لهجات، تتباين في بعض الظواهـر النطقية، وتتفق فيمـا وراء ذلك من جوانب اللغة.

والعرب في الجزيرة العربيـة كانـوا قبائـل وجماعـات، تفصل بـين القبيلة او الجماعة وما سواها فواصل جغرافية ونفسية، فالجزيرة بطبيعة أرضها ومناخها تفرض على الناس ان يعيشوا حيث يوجد الماء والكلأ، فتحددت بذلك مناطق اقامة القبائل وتحركاتها، ثم ان سيطرة الروح القبلية والنزاعات الحربية بين القبائـل كانت تحول في احيان كثيرة دون التقارب والاختلاط بين عرب الجزيرة. والى جانب ذلك فان الحالة الثقافية المتمثلة بانعدام وسائل التعلم لقلة الكتابة، وعـدم وجود الكتب، ثم صعوبة التنقل وبطء المواصلات، كل ذلك كان يشكل فواصل وحواجز تحول دون التقارب اللغوي للقبائل العربية في الجزيرة، سواء كانت تسكن المدن ام تطوف في الصحارى، يستثنى من ذلك بعض فرص الاتصال في مواسم التجارة او الحج.

فكانت كل قبيلة، نتيجة لذلك، لها لهجة خاصة بها، تشترك مع لهجات القبائل الاخرى في خصائص تجعل اللغويين يصفونها بأنها لهجة عربية، وتختلف عنها بأمور تميزها عما عداها، وقد قال القاسم بن ثابت السرقسطي «ت ٣٠٢هـ»(٢٢٠):

---

(٢٢٠) انظر: البلوى الف باء ١/ ٢٦١. وابو شامة: المرشد الوجيز ص١٢٨.

«ان الله تبارك وتعالى بعث نبيه صلى الله عليه وسلم والعرب متنـاؤون في المحال والمقامات، متباينون في كثير من الالفاظ واللغـات، ولكل عَمَـارة[321] لغة دلت بهـا السنتهم، وفحوى جرت عليها عادتهم...».

وقد كان قدامى اللغويـين العرب يتحـدثون عن تلـك اللهجات، ويـذكرون في حديثهم: لهجة اهل الحجاز: مكة والمدينة، ولهجة قريش، وهذيل، وتميم، وقيس، وأسد، وطيء، ونجد، ونجران، وحوران، وهجر... الخ وكانوا يسمون اللهجة باسم «لغة» فيقولون لغة اهل الحجاز، وهكذا[322].

ولسنا بصدد بيان أوجه الاختلاف والاتفاق بين اللهجات العربية وانما نشير الى هذه الحقيقة اللغوية، وهي وجود تباين لغوي في امور معينة بين تلك اللهجات، وهو تباين لا يطغي عـلى وجوه الاتفـاق والتقارب، ولا يحـول دون تفاهم افـراد الناطقين بتلك اللهجات، وهذا الواقع للغة العربية أمر طبيعي، فليست هناك لغة الا ولهـا لهجات ومستـويات بحسب المنـاطق التي تتكلمهـا او بحسب الافـراد الناطقين بها[323].

ويذهب عدد من الدارسين الى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقي القرآن من جبريل عليه السلام بنطق يماثل نطق اهـل مكة من قـريش ومن جاورهم من فصحاء العرب، وتلاه على الناس بذلك النطق[324] ويستدل على ذلك بجملـة امور منها قوله تعالى «وما أرسلنا مِن رسول إلا بلسانِ قومِهِ لِيُبَيِّنَ لهم» (ابراهيم ٤).

ومنها قول عثمان رضي الله عنه الذي ورد في رواية نسخ المصاحف، التي رواها البخاري، وذكرناه من قبل، وهو: «وقال عثمـان للرهط القـريشيين الثـلاثة: اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانمـا نزل بلسانهم». وجاء قول عثمان هذا في رواية اخرى للبخاري عـلى هذا النحـو: «اذا

---

(٣٢١) العمارة: اصغر من القبيلة، وقيل هي الحي العظيم «انظر: ابن منظور، لسان العرب: مادة عمر».

(٣٢٢) انظـر: السيوطي: المـزهر ١/٢٠٩ ـ ٢١٢ و٢٢١ ـ ٢٢٣. وعبـدة الراجحي: اللهجـات العـربيـة في القراءات القرآنية ص٥٥ ـ ٦٠.

(٣٢٣) انظر: ابراهيم انيس: في اللهجات العربية ص١٦.

(٣٢٤) انظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص٩٥.

اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فان القرآن أنزل بلسانهم»[٢٢٥].

ومن تلك الامور التي يستدل بها ان القرآن انزل بلغة اهل مكة، اي لغة قريش، ما رواه ابو داود في سننه، من ان عمر بن الخطاب كتب الى عبد الله بن مسعود حين بلغه أنه يعلم الناس القرآن في الكوفة بلغة هذيل، وكان عمر أرسله: «أما بعد، فان الله تعالى أنزل القرآن بلغة قريش، فاذا أتاك كتابي هذا فأقرىء الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل»[٢٢٦].

ومن ذلك ايضاً ما رواه ابو بكر بن ابي داود من ان عمر بن الخطاب قال لايُملِينَّ في المصاحف إلا غلمان قريش، وأن عبد الله بن مسعود قال: «لا يكتب المصاحف الا مضريّ» وقد عقب بن ابي داود على ذلك بقوله «قال ابو بكر: هذا من اجل اللغات»[٢٢٧].

والاسلام دين للناس كافة، قال تعالى: «وما أرسلناك إلا كافةً للنَاس، بشيراً ونذيراً» (سبأ ٢٨)، ومن ثم كان القرآن الكريم خطاباً عاماً للبشرية كلها، وكان العرب اول من استمع الى ذلك الخطاب الرباني، وكانوا اول من دُعِيَ الى تلاوته والتصديق بمعانيه والعمل بأحكامه.

ولا شك في ان اهل مكة كانوا أقدر على تحقيق نطق القرآن كما نطقه رسول الله صلى الله عليه وسلم لانهم قومه وعشيرته، اما غيرهم من العرب فكانوا متفاوتين في القدرة على تحقيق ذلك النطق، بحسب قرب او بعد لغاتهم من لغة اهل مكة، ومن هنا ظهرت مشكلة عدم قدرة افراد بعض القبائل العربية على نطق القرآن نطقاً يطابق تمام المطابقة نطق النبي صلى الله عليه وسلم لاعتياد السنتهم النطق بلغات قبائلهم التي نشأوا وشبوا عليها، فأصبح من غير اليسير تحويل السنتهم الى نطق آخر، وان كان نطقاً عربياً ايضاً.

---

(٢٢٥) البخاري: الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٤.

(٢٢٦) انظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٠١. ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٢٧.

(٢٢٧) كتاب المصاحف ص١١ ، ١٢٥. وانظر السيوطي: المزهر ١/ ٢١١. وابن فارس: الصباحي ص٢٨.

قال ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة «ت ٢٧٦هـ) في كتابه «تأويل مشكل القرآن» عن هذا الموضوع[٣٢٨]: «ولو ان كل فريق من هؤلاء أُمِرَ ان يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه الا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة. فأراد الله برحمته ولطفه ان يجعل متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات...».

وقال ابن قتيبة ايضاً: فكان من تيسير الله ان امر رسوله بأن يقرىء كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم[٣٢٩] وقد جاءت الاشارة الى ذلك في احاديث صحيحة كثيرة، رواه اصحاب الكتب الستة وغيرهم عن كثير من الصحابة، بألفاظ متقاربة ومعان متفقة، من طرق كثيرة، وهي تتفق في ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف، فأقرأوا ما تيسر منه».

فمن ذلك ما أورده الترمذي في الجامع عن أبي بن كعب انه قال: «لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل، فقال: يا جبريل اني بعثت الى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط. قال: يا محمد ان القرآن انزل على سبعة احرف». قال: الترمذي: هذا حديث حسن صحيح قد ورد عن أبيّ بن كعب من غير وجه[٣٣٠].

ومن ذلك ايضاً ما رواه البخاري وغيره من اهل الحديث ان عمر ابن الخطاب قال[٣٣١]: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته. فذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم. فلَبَبتهُ بردائه، فقلت: من اقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: اقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: كذبت فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: اني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله صلى الله

---

(٣٢٨) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص٣٩ ـ ٤٠.

(٣٢٩) المصدر نفسه ص٣٩.

(٣٣٠) الترمذي: الجامع ٤/٢٦٣. وانظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص٨٢.

(٣٣١) ابن حجر: فتح الباري ٩/٢٣.

عليه وسلم لعمر: أرسله، فأرسله عمر، فقال لهشام: اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك انزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك انزلت، ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسر منه».

وقد وقع لبعض الصحابة ما وقع لعمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم من الاختلاف في القراءة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين للصحابة صحة قراءاتهم، ويقول: «ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف، فاقرأوا ما تيسر منه»[٣٣٢].

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الصحابة قراءة القرآن ويسمع منهم، ويقرهم على قراءتهم، تخفيفاً وتوسعةً من الله تعالى عليهم، ولم يحملهم امام ذلك الوضع اللغوي المعقد على تعلم نطق قريش لقراءة القرآن به، وانما أذن لهم بقراءة القرآن بوجوه من النطق المتفقة المعنى، فالقراءات القرآنية ترتبط بهذا الاصل الذي بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن للصحابة معه بتلك القراءات واقرهم عليها.

---

(٣٣٢) انظر روايات تلك الاحاديث: ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٤٥ظ. والبخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٢٧. ومسلم بن الحجاج: الجامع الصحيح ٢/٢٠٢. والطبري: جامع البيان ١/١١ ـ٢٠. ومكي الابانة ص٦٢ ـ ٦٩. وابو شامة: المرشد الوجيز ص٧٧ ـ ٨٩. وقد نص على تواتر احاديث هذا الباب ابو عبيد القاسم ابن سلام «ت ٢٢٤هـ» في كتابه فضائل القرآن «ورقة ٤٦ظ، وانظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص٨٧، والزركشي: البرهان ١/٢١٢. وابن الجوزي: النشر ١/٢١». الا ان المستشرق جولد تسيهر «ت ١٩٢١م» ذكر في كتابه: مذاهب التفسير الاسلامي «٥٤» ان ابا عبيد القاسم ابن سلام دمغ الحديث «بأنه شاذ غير مسند». ولكن البحث في المصدر الذي نقل عنه جولد تسيهر ذلك القول. وهو كتاب الف باء «١/٢١» لابي الحجاج البلوي، يكشف ان هذا المستشرق وقع في وهم، لا يصدق ان مثله يقع فيه من غير تعمد منه. فالواقع هو ان ابا عبيد نص على تواتر الحديث، كما ذكرنا الا انه وصف احدى روايات الحديث بانها شاذة. وهذه كتب ابي عبيد موجودة بيننا اليوم، تصدق ما نقول. قال ابو عبيد في كتابه فضائل القرآن «ورقة ٤٦ظ» «قد تواترت هذه الاحاديث كلها على الاحرف السبعة...» وقال في كتابه غريب الحديث «٣/١٥٩»: «... وقد روى في حديث خلاف هذا، قال نزل القرآن على سبعة احرف حلال وحرام، وأمر ونهي، وخبر ما كان قبلكم وخبر ما هو كائن بعدكم، وضرب امثال. قال ابو عبيد: ولسنا ندري ما وجه هذا الحديث، لانه شاذ غير مسند، والاحاديث المسندة المثبتة ترده.. وليس يكون المعنى في السبعة الاحرف الا على اللغات لا غير، بمعنى واحد، لا يختلف في حلال ولا حرام. ولا خبر ولا غير ذلك».

المبحث الثاني: معنى الاحرف السبعة:

اهتم علماء القراءة بحديث الاحرف السبعة اهتماماً واسعاً، فحصروا رواياته وبحثوا في معناه، وكتبوا في ذلك الفصول، وألفوا الرسائل[٣٣٣]، لان هذا الحديث يمثل اساس القراءات القرآنية، فهو الاصل الذي صدرت عنه، لكن روايات الحديث على كثرتها لا تحدد معنى الاحرف السبعة، ولا تبين المقصود من كل حرف. وقد قال ابو بكر بن العربي: «لم تتعين هذه السبعة بنص من النبي صلى الله عليه وسلم ولا باجماع من الصحابة، وقد اختلف فيها الاقوال....»[٣٣٤].

ولا ينبغي ان يصدنا ذلك الاختلاف في تحديد معنى الاحرف السبعة عن وضع الحديث في موقعه الصحيح من تاريخ القراءات، وقد نقل القرطبي أن أبا حاتم محمد بن حبان البستي «ت ٣٥٤ هـ» ذكر ان الناس اختلفوا في السبعة على خمسة وثلاثين قولاً[٣٣٥]، لكن ابن حجر قال: «قال المنذري: اكثرها غير مختار»[٣٣٦]. وقال المهدوي[٣٣٧]: «واختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافاً كثيراً، فاكثرهم على ان معناه في الالفاظ المسموعة، لا في المعاني المختلفة، مثل القول بأن المقصود منها حلال وحرام.. الخ..، قال عبدالعزيز بن عبد السلام: «وانما يدخل في الحروف السبعة ما كان من مختلف اللفظ متحد المعنى...»[٣٣٨].

ومما يؤيد ان الاحرف السبعة الوارد ذكرها في الحديث انما تتعلق بالاختلاف في نطق الالفاظ، لا الاختلاف في المعاني والاحكام، ما أخرجه ابن ابي شيبة وابو

---

(٣٣٣) من المؤلفين من افرد رسائل في موضوع هذا الحديث، كما فعل مكي بن ابي طالب «ت ٤٣٧هـ» في كتابه «الابانة عن معاني القراءات». وكما فعل ابو بكر بن العربي «ت ٥٤٢هـ» فقد قال في شرحه على صحيح الترمذي «١١/ ٦٠»: «حديث انزل القرآن على سبعة احرف، قال ابن العربي: هذا حديث صحيح، وقد بينا معناه في جزء مفرد على غاية الايضاح»، وكما فعل عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بابي شامة «ت ٦٦٥هـ» في كتابه «المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» والف الشيخ محمد المطبعي «ت ١٩٢٥م» رسالة سماها «الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن» الى جانب فصول وابواب كثيرة في معظم كتب القرآن في القديم والحديث.

(٣٣٤) أبو شامة: المرشد الوجيز ص٩٧. الزركشي: البرهان ١/ ٢١٢.

(٣٣٥) انظر: القرطبي. الجامع لاحكام القرآن ١/ ٤٢. والزركشي: البرهان ١/ ٢١٢.

(٣٣٦) فتح البار ٩/ ٢٣

(٣٣٧) كتاب بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات ورقة ١١٩ ظ.

(٣٣٨) الفوائد في مشكل القرآن ص٢١. وانظر السيوطي: الاتقان ١/ ١٣٦ ـ ١٣٧

جعفر الطبري عن ابي العالية «رفيع بن مهران ت ٩٢هـ على خلاف» انه قال: «قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل خمس رجل، فاختلفوا في اللغة، فرضي قراءاتهم كلهم....»[٣٣٩]فالاختلاف الحاصل بين الصحابة، وهم يقرؤون القرآن، كان في اللغة، أي انهم اختلفوا في نطق الالفاظ، بسبب اختلاف اللهجات.

ويؤيد ذلك ايضاً ما نقله ابو عبيد في كتابه «فضائل القرآن» ومسلم بن الحجاج في «الجامع الصحيح» من ان محمد بن مسلم بن شهاب الزهري قال[٣٤٠]: «بلغني ان تلك الأحرف إنما هي في الامر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام». قال القاضي عياض: قول شهاب خلاف لمن ذهب الى ان السبعة في المعاني، واشارة الى ان ذلك في الحروف والالفاظ[٣٤١]. وابن شهاب الزهري «ت ١٢٤ هـ» من علماء التابعين وقوله «بلغني» يعني انه سمع معنى ما ذكره في قوله عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الارجح.

فيتعين من ذلك ان يكون موضوع الاحرف السبعة في نطاق الاختلاف في منحى النطق، دون اختلاف المعنى، وقد دارت آراء جمهور العلماء في معنى الاحرف في اطار ذلك، لكنهم لن يتفقوا على تفسير معين الا انه يمكن حصر مذاهبهم في تفسير الاحرف في اتجاهين:

الاتجاه الاول: هو ان عدد السبعة لم يقصد به الحصر.

ذهب جماعة من العلماء الى انه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة، ولفظ «السبعة» يطلق على ارادة الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات، والسبعمائة في المئين، ولا يراد العدد المعين[٣٤٢].

قال ابو شامة المقدسي: «هو كما قيل في معنى قوله تعالى «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» (التوبة ٨٠) انه جرى كالمثل في التعبير عن التكثير، لا حصراً في هذا العدد، والله اعلم»[٣٤٣].

---

(٣٣٩) العيني: عمدة القارىء ٢٠/١٥. والطبري: جامع البيان ١/١٩، وانظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٣٠

(٣٤٠) فضائل القرآن ورقة ٤٦و- والجامع الصحيح ٢/٢٠٢

(٣٤١) اكمال المعلم بفوائد مسلم ص٣٦١.

(٣٤٢) السيوطي: الاتقان ١/١٣١.

(٣٤٣) المرشد الوجيز ص٩٩.

قال ابو الخير محمد بن الجزري[٣٤٤]: «وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل المراد السعة والتيسير، وانه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب، من حيث ان الله تعالى اذن لهم في ذلك والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لايزيد ولا ينقص، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر، قال تعالى «كمثل حبة انبتت سبعَ سَنَابِلَ» (البقرة ٢٦١) و «ان تستغفر لهم سبعين مرة» (التوبة ٨٠) وقال - صلى الله عليه وسلم في الحسنة: (الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة)....».

والى هذا الرأي جنح القاضي عياض، ومن تبعه[٣٤٥].

قال ابن الجزري عن هذا الاتجاه في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم «سبعة أحرف»[٣٤٦]: «وهذا جيد، لولا ان الحديث يأباه» قال السيوطي: «ويرده ما في حديث ابن عباس في الصحيحين، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرأني جبريل على حرف، فراجعته فلم ازل استزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة احرف» وفي حديث أُبَيٍّ عند مسلم: «ان ربي ارسل الي ان اقرأ القرآن على حرف، فرددت اليه: ان هون على امتي، فأرسل الي: ان اقرأ على حرفين، فرددت اليه: ان هَوِّن على أمتي: فأرسل الي أن اقرأه على سبعة أحرف» فهذا يدل على ارادة حقيقة العدد وانحصاره»[٣٤٧].

الاتجاه الثاني:

وذهب اكثر علماء السلف الى ان المقصود بالسبعة في الحديث الحصر، وارادة حقيقة العدد، لكن اختلفوا في تعيين السبعة، واشهر الأقوال في هذا الاتجاه ثلاثة:

القول الاول: انها سبع لغات من لغات العرب.

---

(٣٤٤) النشر ١/٢٥ - ٢٦.

(٣٤٥) انظر ابن حجر: فتح الباري ٩/٢٣ والسيوطي: الاتقان ١/١٣١. ولم أجد في كتاب «اكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض. المحفوظ في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد مخطوطاً. ما يفهم منه ان القاضي يجنح الى هذا القول «انظر ص٣٥٩ - ٣٦١» ونص كلامه هناك «قيل هو توسعه وتسهيل». ونقل الامام النووي كلام القاضي في شرحه لصحيح مسلم «انظر ٥/٩٩ - ١٠٠».

(٣٤٦) النشر ١/١٦.

(٣٤٧) الاتقان ١/١٣١ - ١٣٢.

لعل أقدم من شرح هذا القول وأخذ به في تفسير الأحرف السبعة هو أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، فقال في كتابه «غريب الحديث»[٢٤٨]: «قوله سبعة احرف، يعني سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه ان يكون في الحرف الواحد سبعة اوجه، هذا ما لم نسمع به قط، ولكن نقول هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات، ومعانيها في هذا كله واحدة، ومما يبين ذلك قول ابن مسعود: «اني قد سمعت القَرَأة فوجدتهم متقاربين، فأقرؤوا كما علمتم، انما هو كقول احدكم هلم وتعال». وكذلك قال ابن سيرين: «انما هو كقولك: هلم وتعال وأقبل»، ثم فسره ابن سيرين، فقال: في قراءة ابن مسعود «ان كانت الا زقية واحدة» وفي قراءتنا «إن كانت الا صيحة واحدة» (يس ٢٩).

وقال أيضاً:[٢٤٩] «ولا يكون المعنى في السبعة الاحرف الا على اللغات لا غير، بمعنى واحد، لا يختلف فيه حلال ولا حرام ولا خبر ولا غير ذلك».

وقال في كتاب «فضائل القرآن»[٢٥٠]: «وليس معنى تلك السبعة ان يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه. هذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات، متفرقة في جميع القرآن، من لغات العرب. فيكون الحرف منها بلغة قبيلة، والثاني بلغة اخرى سواها، والثالث بلغة اخرى سواها، كذلك الى السبعة، وبعض الاحياء أسعد بها من بعض، واكثر حظاً فيها من بعض».

ونقل ابو عبيد عن قتادة عمن سمع ابن عباس انه قال: نزل القرآن بلغة الكعبين: كعب قريش، وكعب خزاعة، ونقل عن الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس انه قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن[٢٥١].

وقد تابع ابا عبيد في هذا القول كل من ابي حاتم سهل بن محمد السجستاني «ت ٢٥٥هـ على خلاف»، وابو العباس احمد بن يحيى الملقب بثعلب «ت ٢٩١هـ»،

---

(٢٤٨) غريب الحديث ٣/١٥٩ ـ ١٦٠. وانظر الازهري: تهذيب اللغة ٥/١٣. وابو شامة: المرشد الوجيز ص٩١.

(٢٤٩) غريب الحديث ٣/١٦١

(٢٥٠) فضائل القرآن ورقة ٤٦ظ وابو شامة: المرشد الوجيز ص٩١.

(٢٥١) المصدران السابقان ورقة ٤٦ ظ. ص ٩٢ ـ ٩٣، على التوالي.

وابو منصور محمد بن احمد الازهـري «ت ٣٧٠هـ»[٣٥٢]، واختاره عبد الحق بن عطية الغرناطي. «ت٥٤٣هـ»[٣٥٣].

وقد اعترض بعض العلماء على هذا القول بأن لغات العرب اكثر من سبعة وانه يلزم عليه ان جبريل كان يلفظ باللفظ الواحد سبع مرات، والى جانب ذلك فان عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي، من لغة واحـدة وقبيلة واحـدة، وقد اختلفت قراءتهما، ومحال ان ينكر عليه عمر لغته، فدل ذلك على ان المراد بالاحرف السبعة غير اللغات[٣٥٤].

وقد ضعف محمد بن جرير الطبري الخبرين اللذين نقلهما ابو عبيد عن ابن عباس وأبطل الاحتجاج بهما، فقال[٣٥٥]: «رُوِيَ جميع ذلك عن ابن عباس وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله، وذلك ان الذي روى عنه «خمسة منها بلسان العجز من هوازن» الكلبي عن ابي صالح، وان الـذي روى عنه «ان اللسانين الاخرين قريش وخزاعة» قتادة، وقتادة لم يلقه ولم يسمع عنه».

وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا القول أيضاً، وقالوا: لم ينزل القرآن الا بلغة قريش، لقوله تعالى «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه»[٣٥٦].

قال أبو شامة: «وقد قال بعض الشيوخ: الواضح من ذلك ان يكون الله تعالى انـزل القرآن بلغـة قريش ومن جـاورهم من فصحـاء العـرب، ثم ابـاح للعـرب المخاطبين به المنزل عليهم ان يَقرَؤوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالها على اختلافهم في الالفاظ والاعراب، ولم يكلف بعضهم الانتقال من لغة الى غيرها لمشقة ذلك عليهم...»[٣٥٧].

ونقل ابو شامة عن ابن عباس: «ان النبي صلى الله عليـه وسلم كان يقـرىء الناس بلغة واحدة، فاشتد ذلك عليهم، فنزل جبريل فقال: يامحمد اقرىء كل قوم

---

(٣٥٢) الازهري: تهذيب اللغة ٥/١٢ والسيوطي: الاتقان ١/١٣٥

(٣٥٣) مقدمة تفسير ابن عطية ص ٢٦٧.

(٣٥٤) انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٠٢، السيوطي: الاتقان ١/١٣٦.

(٣٥٥) جامع البيان ١/٢٩.

(٣٥٦) ابو شامة: المرشد الوجيز ص ٩٤ والزركشي: البرهان ١/٢١٨.

(٣٥٧) المرشد الوجيز ص٩٥.

بلغتهم». ثم قال: «قلت: هذا هو الحق، لانه انما أبيح ان يقرأ بغير لسان قريش توسعة على العرب فلا ينبغي ان يوسع على قوم دون قوم، فلا يكلف احد الا قدر استطاعته..»[٣٥٨].

وقال السيوطي[٣٥٩]: «ان الاباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، بان يغير كل احد الكلمة بمرادفها في لغته، بل المرعي في ذلك السماع من النبي صلى الله عليه وسلم».

القول الثاني: الاحرف السبعة هي سبعة الفاظ مختلفة في النطق متفقة في المعنى)

ذهب الى هذا ـ فيما يقال ـ سفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ)، وعبد الله بن وهب (ت١٩٧هـ)، وابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) وابو جعفر احمد بن محمد الطحاوي (ت٣١٢هـ) وغيرهم[٣٦٠].

قال ابو جعفر الطبري[٣٦١]: «الاحرف السبعة التي انزل بها القرآن هي لغات سبع، في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف الالفاظ واتفاق المعاني، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، والي، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الالفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعاني، وان اختلفت بالبيان به الالسن، كالذي روينا آنفاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة ان ذلك بمنزلة قولك: هلم وتعال واقبل، وقوله «ما ينظرون الا زقية» و«الاصيحة...» ويرى الطبري ان عثمان رضي الله عنه جمع الناس على حرف واحد، وان الاحرف الستة الاخرى قد ذهبت[٣٦٢].

ان الامثلة التي تجدها في القراءات المنقولة عن بعض الصحابة وقد بُدلت فيها كلمة باخرى ترادفها أمثلة قليلة، ولم تنقل لنا كلمة واحدة في القرآن قرئت بسبعة

---

(٣٥٨) المصدر نفسه ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٣٥٩) الاتقان ١/١٣٦

(٣٦٠) انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٠٥ ـ ١٠٦ والقرطبي: الجامع لاحكام القرآن ١/٤٢ والزركشي: البرهان ١/٢٢٠ والسيوطي: الاتقان ١/١٣٤.

(٣٦١) جامع البيان ١/٢٥

(٣٦٢) المصدر نفسه ١/٢٨

وجوه، كل وجه يغاير الاخر في النطق، ويوافقه في المعنى، قال ابو عبيد القاسم بن سلام «ت٢٢٤هـ» في كتاب «فضائل القرآن[٣٦٣]»: «وليس معنى تلك السبعة ان يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة اوجه، هذا شيء غير موجود ...».

وقال ابن قتيبة «ت٢٧٦هـ»[٣٦٤]: «وليس يوجد في كتاب الله تعالى حرف قرىء على سبعة أوجه....».

وقال ابن عبد البر «ت٤٦٣»[٣٦٥]: «وهذا مجتمع عليه ان القرآن لا يجوز في حروفه وكلماته وآياته كلها ان تقرأ على سبعة احرف ولا شيء منها، ولا يمكن ذلك فيها...».

واذا كنا نجد بعض الامثلة التي تؤيد هذا القول مثل «زقية» مكان «صيحة» ومثل «الصوف» مكان «العهن»، كما ورد في قراءة بعض الصحابة فان هذه الامثلة، وهي قليلة، لا نجد من بينها مثالاً واحداً، تتوارد فيه سبعة الفاظ في حرف واحد، بل نجد توارد الكلمة الواحدة مكان الاخرى، هذا من جانب، ومن جانب آخر كيف يمكن ان تتصور ان لغات العرب تختلف في تسمية الاشياء الى الحد الذي يكون فيه للمعنى الواحد في اللغة الواحدة، لفظ يغاير اللفظ الذي تستعمله اللغة الاخرى، فاللهجات العربية لم تصل مظاهر الاختلاف بينها إلى حد التباين التام في الالفاظ ولو كان الامر كذلك، كما يفهم من رأي الطبري وموافقيه، لكانت اللهجات العربية لغات مستقلة، ليس بينها من صلة الا كما بين انعربية واللغات السامية الاخرى.

واذا كان الامر كذلك فان عبد الحق بن عطية «ت٥٤٢هـ» مصيب فيما يبدو حين وصف هذا الرأي بأنه قول ضعيف[٣٦٦].

القول الثالث: هو ان الاحرف السبعة هي سبعة من وجوه اختلاف القراءات. والذين ذهبوا هذا المذهب عمدوا الى وجوه القراءات المنقولة صحيحها

---

(٣٦٣) فضائل القرآن ورقة ٤٦ظ.

(٣٦٤) تاويل مشكل القرآن ص٣٤.

(٣٦٥) ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٠٠

(٣٦٦) مقدمة تفسير ابن عطية ص٢٦٤

وشاذها، وحاولوا تصنيف تلك الوجوه في سبعة ابواب او انواع، وجعلوا كل باب او نوع يقابل احد الاحرف السبعة، المذكورة في الحديث.

وكان ابن قتيبة من اوائل من حاولوا تصنيف وجوه القرءات على هذا النحو، فيما اعلم، قال في كتاب «تأويل مشكل القرآن»[٣٦٧]: «وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة اوجه...» واقتفى كثير من العلماء الذين جاءوا بعد ابن قتيبة منهجه هذا، مع اختلافات يسيرة في طريقة التصنيف او في الامثلة[٣٦٨].

وهذا مثال من تلك المحاولات لتصنيف وجوه الاختلاف في القراءة في سبعة انواع، تقابل العدد الوارد في الحديث[٣٦٩].

الوجه الاول: ابدال لفظ بلفظ اخر بمنزلته ومعناه، كقراءة ابن مسعود «زقية» و«الصوف» مكان «صيحة» و«العهن».

الوجه الثاني: ابدال حرف بحرف بمنزلته، كقراءة «الصراط» بالصاد والسين، و«النخل باسقات» (سورة ق ١٠) قرئت بالصاد، وقوله تعالى «وإذا الرسل أقتت» (المرسلات ١) قرىء: وقتت.

الوجه الثالث: تقديم وتأخير: أما في كلمة نحو «لا ينال عهدي الظالمين» (البقرة ١٢٤)، وهي قراءة العامة، وقرىء ايضاً «الظالمون» واما في الحروف نحو «بعذاب بَئِيس» (الاعراف ١٦٥)، وقرىء «بَيأس».

الوجه الرابع: زيادة حرف او نقصانه، مثل قوله تعالى «ما أغنى عني ماليَه، هلكَ عني سلطانِيَه» (الحاقة ٢٨،٢٩) قرىء باسقاط هاء السكت.

الوجه الخامس: اختلاف حركات البناء، سئل: البُخْل والبَخَل، ومَيْسَرَة، ومَيْسُرَة، ويحسِب ويحسَب، واسُوة واسوة.

الوجه السادس: اختلاف حركة الاعراب، قال الله تعالى: «ما هذا بشراً» (يوسف ٣١)، ابن مسعود على لغة هذيل «ما هذا بشرٌ» ونحو «ذو العرش المجيدُ» (البروج ١٥) «المجيدِ» بالكسر.

---

(٣٦٧) تأويل مشكل القران ص٣٦.

(٣٦٨) انظر: ابو بكر الباقلاني: نكت الانتصار ص١٢٠ مكي. الابانة ٣٦ وابو عمرو الداني: جامع البيان ورقة ٤٠ب ـ ٧ب، وعلم الدين السخاوي: جمال القراءة ورقة ٨٦ ب. ابن الجزري: النشر ١/٢٦ والسيوطي: الاتقان ١/١٣٢ والقسطلاني: لطائف الاشارات ١/٣٨

(٣٦٩) مقدمة كتاب المباني ص٢٢١ ـ ٢٢٧

الوجه السابع. اختلاف النطق بالتفخيم او الترقيق والامالة او الفتح والاظهار او الادغام، ونحو ذلك.

وهذه الوجوه السبعة التي حمل عليها قوله صلى الله عليه وسلم «ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف...» لم يتفق عليها القائلون بهذا القول، فربما عرضها بعضهم على غير هذا النحو، حتى كثرت وتعددت محاولات العلماء وهم بصدد تصنيف القراءات المأثورة، لتكون على وفق العدد المذكور في الحديث[٣٧٠].

وهذه المحاولات لتصنيف القراءات في سبعة وجوه لا تستند الى اساس ثابت، ومن ثم اختلفت طريقة التصنيف باختلاف العلماء ثم ان حصر تلك الوجود في سبعة ما هو الا تحكم محض ليكون العدد موافقاً لما جاء في الحديث، اذ يمكن ان تكون تلك الوجوه دون ذلك العدد او اكثر منه.

ولهذا قال ابو شامة المقدسي، رحمه الله[٣٧١]: «وهذه الطرق المذكورة في بيان وجود السبعة الاحرف في هذه القراءات المشهورة كلها ضعيفة، اذ لا دليل على تعيين ما عينه كل واحد، ومن الممكن تعيين ما لم يعينوا، ثم لم يحصل حصر جميع القرءات فيما ذكروه من الضوابط، فما الدليل على جعل ما ذكروه مما دخل في ضابطهم من جملة الاحرف السبعة دون ما لم يدخل في ضابطهم...».

وقال القاسم بن ثابت[٣٧٢]: «وهذه الاحاديث الصحاح التي ذكرنا بالاسانيد الثابتة المتصلة تضيق عن كثير من الوجوه التي وجهها عليها من زعم ان الاحرف في صورة الكتبة وفي التقديم والتأخير والزيادة والنقصان، لان الرخصة كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب ليس لهم يومئذ كتاب يعتبرونه، ولا رسم يتعارفونه ولا يقف اكثرهم من الحروف على كَتْبِهِ، ولا يرجعون منها على صورة، وانما كانوا يعرفون الالفاظ بجرسها، اي بصوتها، ويجدونها بمخارجها، ولم يدخل عليهم يومئذ من اتفاق الحروف مادخل بعدهم على الكاتبين من اشتباه

---

(٣٧٠) انظر نماذج من تلك المحاولات تبو شلمة: المرشد الوجيز ص١١٣ ـ ١٢٥ وابن الجزري: ١/٢٦ ـ ٢٨

(٣٧١) المرشد الوجيز ص١٢٧

(٣٧٢) المصدر نفسه ص١٢١ ـ ١٢٢

الصور، وكان أكثرهم لا يعلم بين الزاي والسين سبباً، ولا بين الصاد والضاد نسباً».

تلك خلاصة ما قاله علماء السلف في معنى الاحرف السبعة، واذا كانوا لم يتـ وا على تفسير للحديث النبوي الشريف، فاننا يمكن في الواقع ان نستفيد من اقوالهم كلها لنصل الى فهم مناسب للحديث، وللظروف التي قيل فيها، وللغاية التي حققها، فمما لا شك فيه ان لغات العرب - وقت نزول القرآن - كانت متباينة، ونزول القرآن بلغة قريش، وتلاوته بتلك اللغة لا يتيسر للعرب من غير قريش واهل مكة بسهولة، فكان تعدد لغات العرب سبباً في وجود رخصة الاحرف السبعة، التي جاءت تيسر السبيل امام العرب من المسلمين ليتمكنوا من تعلم القرآن وقراءته.

فمن جعل معنى الاحرف السبعة «سبع لغات من لغات العرب» لم يبتعد عن الواقع، وانما نظر الى الموضوع من بعض جوانبه، لان اختلاف لغات العرب كان - في الحقيقة - سبب وجود تلك الرخصة، كذلك من جعل معناه «الالفاظ المتفقة المعنى المختلفة النطق» أو من جعل معناها «وجوه القراءات المتعددة» لم يبتعد عن الواقع ايضاً لان تلك الرخصة كان من مظاهرها - كما ورد في بعض قراءات الصحابة - استبدال لفظ بآخر في معناه، كذلك كان من اهم مظاهرها وآثارها هذه القراءات التي قرأ بها الصحابة، ونقلها التابعون ورواها القراء، ومن بعدهم الى وقتنا.

فكان من رحمة الله تعالى بالرعيل الاول من المسلمين انه لم يكلفهم فوق ما يطيقون ولم يشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يضع بوجههم عقبات تحول دون تعلمهم القرآن وقراءته بسهولة ويسر، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الرخصة، «لعلمه صلى الله عليه وسلم بما هم عليه من اختلاف اللغات واستصعاب مفارقة كل فريق منهم الطبع والعادة في الكلام الى غيره فخفف الله تعالى عنهم، وسهل عليهم بان اقرهم على مألوف طبعهم وعاداتهم في كلامهم»[٢٧٣].

قال ابن قتيبة[٢٧٤]: «ولو ان كل فريق من هؤلاء أمر ان يزول عن لغته، وما جرى

---

(٢٧٣) الداني : جامع البيان ورقة ٥ب.

(٢٧٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٩ - ٤٠.

عليه اعتياده، طفلاً وناشئاً وكهلاً ـ لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه الا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه ان يجعل متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات...».

وسواء اتحقق حصر مظاهر تلك الرخصة في سبعة وجوه ام لم يتحقق فان المعنى العام لقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسر منه» يمكن ان نفهمه في اطار تلك الحالة المتعلقة في تعدد واختلاف اللغات العربية التي كان يتكلمها الصحابة رضوان الله عليهم فجاء قول النبي صلى الله عليه وسلم حلاً لتلك المشكلة اللغوية، وقد أشار بعض العلماء الى ان تلك المشكلة ظهرت بصورة واضحة بعد الهجرة، حين دخل في الاسلام افراد من مختلف القبائل العربية، وان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل ما ورد في الحديث الا وهو في المدينة[٣٧٥]، فكانت القراءات، ما وصف منها بانه صحيح او شاذ، نتيجة لرخصة الاحرف السبعة.

وينبغي ان نشير هنا الى ان ما تسمح به رخصة الاحرف السبعة محدود بوقت معين، قال ابو جعفر الطحاوي[٣٧٦] «وان تلك السبعة انما كانت في وقت خاص، لضرورة دعت الى ذلك». اما الاجيال التالية للصحابة فليس لها الا اتباع القراءة المأثورة عنهم، سواء اكان ذلك بالنسبة للمسلم العربي، ام لغيره[٣٧٧].

المبحث الثالث: علاقة المصحف برخصة الاحرف السبعة

ان المصاحف التي هي بأيدي الناس اليوم، مطبوعة او مخطوطة، هي المصاحف نفسها التي في خلافة عثمان رضي الله عنه من المدينة الى الامصار، وعرفت باسم المصاحف العثمانية، نسبة الى الخليفة الثالث، الذي امر بنسخها وارسالها الى الامصار، وهي ـ كما عرفت ـ منقولة عن الصحف التي جمع فيها

---

(٣٧٥) انظر: ابن حجر: فتح الباري ٩/٢٨، والقسطلاني: لطائف الاشارات ١/٣٥، وعبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص٦٨

(٣٧٦) انظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٠٦

(٣٧٧) المصدر نفسه ص١٠٢.

زيد بن ثابت القرآن في خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه عن القطع التي كتب عليها القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت قراءة القرآن، في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشتمل وجوهاً من النطق نتيجة رخصة الاحرف السبعة التي سبق الكلام عنها، وقد تساءل علماء السلف: الى اي حد انعكست آثار تلك الرخصة على كتابة القرآن الكريم، سواء في حياة رسول الله ام في خلافة الراشدين؟

قال الامام جلال الدين السيوطي[٢٧٨]: «اخْتُلِفَ: هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الاحرف السبعة؟ فذهب جماعات من الفقهاء والقراء والمتكلمين الى ذلك، وبنوا عليه انه لا يجوز على الامة ان تهمل نقل شيء منها، وقد اجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها ابو بكر، واجمعوا على ترك ماسواها، وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وائمة المسلمين الى انها مشتملة على ما يحتمل رسمها من الاحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الاخيرة التي عرضها النبي صلى الله عليه على جبريل، متضمنة لها لم تترك حرفاً منها، قال ابن الجزري[٢٧٩]: وهذا هو الذي يظهر صوابه».

ومعنى قول علماء السلف ان المصحف مشتمل على جميع الاحرف السبعة، او بعضها، هو ان رسم الكلمات فيه جاء ممثلاً لوجوه القراءات المعروفة، حتى لقد قال بعضهم[٢٨٠]: «ان الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل، ليحتمله ما لم يكن في العرضة الاخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وانما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين...». لكن مجيء المصاحف القديمة الاولى مجردة من

---

(٢٧٨) الاتقان ١/١٤١ ـ ١٤٢ وانظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٢٨ وابن الجزري، النشر ١/٣١.
ومنجد المقرئين «له» ص٢١
(٢٧٩) انظر: النشر ١/١١
(٢٨٠) ابن الجزري: النشر ١/٣٢

النقط والشكل ومما سواهما كان سبب خلو الكتابة العربية آنذاك من تلك العلامات، لا بسبب ان الصحابة جردوا الكتابة من ذلك ليحتمل المصحف كل وجوه الاحرف السبعة.

واذا كنا نرجح أن ما كتب من القرآن امام النبي صلى الله عليه وسلم وبأمره كان في منأى عن آثار رخصة الاحرف السبعة، وكذلك الصحف التي جمع فيها القرآن في خلافة ابي بكر الصديق، فإن المصاحف التي نسخت في خلافة عثمان بن عفان كانت خالية من آثار تلك الرخصة، لقول عثمان للثلاثة القرشيين: «اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم». وهو قول معناه ان الكتبة كانوا يتحرون نطق النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن، بعيداً عن كل اثر لهجي مما سمحت به تلك الرخصة. ومن ثم يمكن القول بأن المصحف العثماني قد كتب على حرف واحد، اي لتمثيل وجه واحد من وجوه النطق فالكتبة حين يرسمون الكلمات لا يبتغون الا تمثيل نطق معين واحد، وبهذه الطريقة فقط يمكن ان يحقق ذلك العمل اهدافه من جمع الناس على مصحف واحد وقراءة واحدة.

وكان محمد بن جرير الطبري قد نص على ان المصحف العثماني قد كتب على حرف واحد، حيث قال: فحملهم ــ يعني عثمان ــ رضي الله عنه على حرف واحد، وجمعهم على مصحف واحد، وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، فاستوسقت له الامة على ذلك بالطاعة، ورأت ان ما فعل من ذلك الرشد والهداية... فلا قراءة للمسلمين اليوم الا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم امامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الاحرف الستة الباقية[٣٨١].

وذهب مكي بن ابي طالب القيسي الى ما ذهب اليه الطبري من ان المصحف العثماني كتب على حرف واحد من الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن، اي كتب على قراءة واحدة، ولتمثيل نطق واحد. لكنه يخالف الطبري في ان القراءات التي يحتملها خط المصحف. هي جزء من الاحرف السبعة، بينما يرى الطبري انها داخلة في الحرف الذي جمع عثمان الناس عليه[٣٨٢].

---

(٣٨١) جامع البيان ١/ ٢٨. وانظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٣٩

(٣٨٢) انظر: الابانة ص٢ ــ ٣ وص١٢.

وقد قال ابو شامة المقدسي: واحسن القول[٢٨٣]: «والحق ان يلخص الامر في ذلك فيقال: المجموع في المصحف هو المتفق على انزاله المقطوع به، وهو ما كتب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أو ثبت عنه انه قرأ به او أقرأ غيره به.. واما ما لم يرسم فهو مما كان جوز به القراءة، وأذن فيه، ولما انزل ما لم يكن بذلك اللفظ خير بين الالفاظ، توسعة على الناس وتسهيلاً عليهم، فلما افضى ذلك الى ما نقل من الاختلاف والتكثير اختار الصحابة رضي الله عنهم الاقتصار على اللفظ المنزل المأذون في كتابته، وترك الباقي للخوف من غائلته، فالمهجور هو ما لم يثبت انزاله، بل هو من الضرب المأذون فيه بحسب ما خف وجرى على السنتهم».

والقول بأن المصحف مكتوب على حرف واحد، او قراءة واحدة، لا يناقض قول جمهور علماء السلف بأن المصحف مشتمل على ما يحتمله رسمه من الاحرف السبعة. فالمصحف ـ في الاصل ـ كتب لتمثيل نطق واحد، ثم انه صار، بسبب تجرد الكتابة من النقط والشكل محتملاً لاكثر من حرف او وجه من وجوه القراءات المروية.

وقد بين مكي بن ابي طالب هذا الجانب، حيث قال[٢٨٤]: «ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم خرج جماعة من الصحابة في ايام ابي بكر وعمر الى ما افتتح من الامصار، ليعلموا الناس القرآن والدين، فَعَلَّم كل واحد منهم اهل مصره، على ما كان يقرأ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فاختلفت قراءة اهل الامصار على نحو ما اختلفت قراءة الصحابة الذين علموهم.

«فلما كتب عثمان المصاحف ووجها الى الامصار، وحملهم الى ما فيها، وأمرهم بترك ما خالفها ـ قرأ اهل كل مصر مصحفهم الذي وجه اليهم على ما كانوا يقرأون قبل وصول المصحف اليهم، مما يوافق خط المصحف، وتركوا من قراءتهم التي كانوا عليها ما يخالف خط المصحف، فاختلفت قراءة اهل الامصار لذلك بما لا يخالف الخط. وسقط من قراءتهم كلهم ما يخالف الخط».

---

(٢٨٣) المرشد الوجيز ص١٣٨ ـ ١٣٩.
(٢٨٤) الابانة ص١٥ ـ ١٦.

والخلاصة هي ان من قال ان المصاحف كتبت على حرف واحد من الاحرف السبعة، اي لتمثيل قراءة معينة، وطريقة في النطق واحدة، فمصيب، وهو امر تدل عليه الاخبار المنقولة حول نسخ المصاحف، ومن قال ان المصاحف تشتمل على ما يحتمله خطها من الاحرف السبعة، فمصيب ايضاً، لكن هذا الامر لم يكن قصد الذين نسخوا المصاحف اولاً، لانهم انما كتبوا القرآن، بحسب نطق النبي صلى الله عليه وسلم اي على لغة قريش، وانما صارت المصاحف مشتملة على ما يحتمله خطها من وجوه الاحرف بعد ان ارسلت الى الامصار الاسلامية، فثبت اهل كل مصر على ما كانوا يقرؤون من قراءات، مما يحتمله خط المصحف، وتركوا ما خالف الخط، وقد ساعدهم على ذلك كون الكتابة مجردة من النقط والشكل، فكان ذلك عاملاً في حفظ كثير من القراءات التي كان يقرؤها اهل الامصار، كما يتضح ذلك من قول مكي بن ابي طالب: الذي نقلناه آنفاً.

المبحث الرابع: نشأة مدارس القراءة

ان تلاوة القرآن كانت من وسائل الدعوة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقى بها الناس في المواسم، فكان يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن[٣٨٥]. واذا دخل رجل في الاسلام دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصحابة، وقال لهم[٣٨٦]: «فقهوا اخاكم في دينه، وأقرئوه وعلموه القرآن...» قال علم الدين السخاوي[٣٨٧]: «وكان صلى الله عليه وسلم اذا أسلم الرجل أمره بقراءة القرآن قبل كل شيء».

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه الصحابة الذين أتقنوا القراءة، وعُرفوا بحسن التلاوة، ليعلموا الداخلين في الاسلام قراءة القرآن، وكان يرسلهم الى القبائل في البوادي او القرى، على نحو ما ارسل مصعب بن عمير رضي الله عنه الى المدينة بعد بيعة العقبة قبل الهجرة «وأمره ان يقرئهم القرآن، ويعلمهم الاسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرىء بالمدينة مصعب[٣٨٨]، وروى البخاري عن

---

(٣٨٥) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/٤٣٢.

(٣٨٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/١٣٥٤.

(٣٨٧) الوسيلة: ورقة ٦و.

(٣٨٨) ابن هشام: السيرة النبوية ١/٤٣٤.

البراء رضي الله عنه انه قال: «اول من قدم علينا من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن...»[٣٨٩].

ولعل مما يصور جانباً من تلك الحركة المباركة لتعليم القرآن الكريم حديث الصحابي الحافظ. عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقد قال[٣٩٠]: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُشغلُ، فذا قدم رجل مهاجر على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعه الى رجل منا، يعلمه القرآن، فدفع الي رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً، وكان معي في البيت، أعشيه عشاء اهل البيت، فكنت اقرئه القرآن، فانصرف انصرافة الى اهله، فرأى أن عليه حقاً، فأهدى الي قوساً لم ار اجود منه عوداً، ولا احسن منه عطفاً، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما ترى يا رسول فيها؟ قال: جمرة بين كتفيك تقلدتها، او تعلقتها»[٣٩١].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رسم للصحابة سبيل تعلم القرآن وتعليمه، على نحو ما قال ابو عبدالرحمن السلمي: «حدثني الذين كانوا يقرئوننا: عثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود، وابي بن كعب رضي الله عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم عشر آيات، فلا يجاوزونها الى عشر اخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[٣٩٢].

هذه الروايات تصور لنا جانباً من تاريخ تعليم القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مرت من قريب الاشارة الى رخصة الاحرف السبعة التي

---

(٣٨٩) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٦٩٩.

(٣٩٠) البنا الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/ ٩. وذكر الساعاتي تخريجه عند ابي داود في سننه، وابن ماجة، والحاكم المستدرك، وقال عند الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد، ولم يخرجاه «البخاري ومسلم»، واقره الذهبي.

(٣٩١) كان من عادة المقرئين الا يأخذوا على تعليم القران اجراً. فيذكر ابن سعد «الطبقات ٦/ ١٧٢ وانظر الذهبي: معرفة القراء ١/ ٤٧» ان ابا عبدالرحمن السلمي «جاء وفي الدار جلال وجزر، قالوا: بعث بهذا عمرو بن حريث، لانك علمت ابنه القران، قال: ردها انا لا نأخذ على كتاب الله اجراً. ويروى ان حمزة الزيات ختم عليه القران رجل من مشاهير حلوان، فبعث اليه بالف درهم. فقال لابنه: قد كنت اظن لك عقلاً انا أخذ على القران اجراً؟ ارجو على هذا الفردوس! «انظر الذهبي: معرفة القراء ١/ ٩٤».

(٣٩٢) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦/ ١٧٢ والبنا الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/ ٩. وابن مجاهد: كتاب السبعة ص٦٩. والحاكم: المستدرك ١/ ٥٥٧. والذهبي معرفة القراء ١/ ٤٦ و٤٨ وسير اعلام النبلاء «طه» ١/ ٣٥٠.

ميزت القراءة في هذه الفترة، كذلك اشرنا ـ من قبل ـ في موضوع ترتيب السور الى جانب من حرص الصحابة على تلاوة القرآن الكريم، وحث النبي صلى الله عليه وسلم لهم وترغيبهم في ذلك، بما يغني عن الاعادة هنا.

وفي عهد الخلافة الراشدة ازدادت الحاجة الى تعليم القرآن لكثرة من دخل في الاسلام، من العرب وغيرهم من الامم، وقد تم في هذا الوقت جمع القرآن في الصحف، في خلافة ابي بكر الصديق، ثم توحيد المصاحف ونسخها وبثها في الامصار في خلافة عثمان.

ويبدو ان تعليم القرآن في الامصار، في هذه الفترة، لم يكن متروكاً للجهود الفردية، بل كان ذلك الامر يستأثر باهتمام الخليفة والولاة، على نحو ما تصور هذه الرواية التي نقلها ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي، قال[٣٩٣]: كتب يزيد بن ابي سفيان ـ احد قادة الجيوش الاسلامية التي فتحت الشام وأحد ولاتها ـ الى عمر بن الخطاب، ايام خلافته، ان اهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن، واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم، فوجه اليه عمر معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبا الدرداء، وقال لهم ابدأوا بحمص، فأنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يلقن، فاذا رأيتم ذلك فوجهوا اليه طائفة من الناس، فاذا رضيتم منهم فليقم بها واحد وليخرج واحد الى دمشق، والآخر الى فلسطين، وقدموا حمص فكانوا بها حتى اذا رضوا من الناس اقام بها عبادة، وخرج ابو الدرداء الى دمشق، ومعاذ الى فلسطين اما معاذ فمات عام طاعون عمواس سنة ١٨هـ. وأما عبادة فصار بعد الى فلسطين فمات بها سنة ٣٤هـ. واما ابو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات سنة ٣٢هـ. رضي الله عنهم.

كذلك ارسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبدالله بن مسعود الى الكوفة، وأبا موسى الاشعري الى البصرة، فكانا هناك يعلمان الناس قراءة القرآن، وكان لهما هناك تلامذة من علماء التابعين، خاصة عبدالله بن مسعود في الكوفة، رضي الله عنهما[٣٩٤].

---

(٣٩٣) الطبقات الكبرى ٢/٣٥٦. وانظر الذهبي: سير اعلام النبلاء ٢/٢٤٨.

(٣٩٤) انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٤٩

وقد ارسى اولئك الصحابة الكرام أسس مدارس القراءة في الامصار الاسلامية، وحين نسخت المصاحف ارسل الخليفة مع كل مصحف رجلاً يقرىء الناس فيه، فقد أورد الجعبري، عن ابي علي انه قال: امر عثمان زيد بن ثابت «ت ٤٥هـ على خلاف» ان يقرىء بالمدني، وبعث عبدالله بن السائب «ت في حدود ٧٠هـ» مع المكي، والمغيرة بن شهاب «ت ٩١هـ» مع الشامي، وأبا عبدالرحمن «ت ٧٣هـ» مع الكوفي، وعامر بن عبد قيس مع البصري[٣٩٥].

ولم يحمل هؤلاء القراء الخمسة اهل الامصار التي نزلوا بها على تعلم قراءتهم، وترك ما كانوا يقرؤون من قبل، فظلت قراءات الامصار تقرأ، الا ما خالف المصحف، ولم يكن عثمان رضي الله عنه حين ارسل هؤلاء مع المصاحف يريد قصر الناس على قراءة دون اخرى، وانما كان يريد جمع المسلمين على مصحف واحد، مكتوب على قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى نطقه، وقد قال عثمان للذين انكروا عليه تحريق المصاحف المخالفة: إقرؤوا كيف شئتم، انما فعلت ذلك لئلا تختلفوا[٣٩٦].

وفي عهد الخلافة الراشدة أيضاً برزت بصورة واضحة معالم مدارس الاقراء في الامصار الاسلامية، وترسخت آداب تعلم القرآن وقراءته، على هدى توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ابو الدرداء، قاضي دمشق وسيد القراء فيها[٣٩٧]، يجعل الناس حين يجتمعون عليه بعد صلاة الغداة للقراءة عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريف او ملقن، حتى يبلغ الذين يَقرؤون القرآن عنده أزيد من الف رجل، وهو يقف في المحراب يرمقهم ببصره، وقد يطوف عليهم قائماً، فاذا أحكم

---

(٣٩٥) خميلة ارباب المراصد ورقة ٦٧ظ. ولم اتوصل الى معرفة ابي علي الذي نقل عنه الجعبري الخبر، وقد نقل المارغني هذا الخبر عن الجعبري «دليل الحيران ص١٧» لكنه ذكر عامر بن قيس، بدل عبد قيس. وذكر ابن الجزري «غاية النهاية ٢/ ٣٠٥» ان الصواب في اسم المغيرة هو «المغيرة بن ابي شهاب» وذكر ان ابا عبيد سماه «المغيرة بن شهاب» «انظر علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٤٩ظ» وقال انه وهم في ذلك، لكن الذهبي ذكره باسم «المغيرة بن شهاب» مرة «معرفة القراء ١/ ٤٢» وباسم «المغيرة بن ابي شهاب» مرة اخرى «معرفة القراء ١/ ٢٩ و٦٨ و٧٠».

(٣٩٦) ابن ابي داود: المصاحف ص٣٦. وانظر: علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ٨٤و.

(٣٩٧) الذهبي: سير اعلام النبلاء ٢/ ١٤١.

الرجل منهم تحول الى ابي الدرداء يعرض عليه، وكان عبدالله بن عامر عريفاً على عشرة، فلما مات ابو الدرداء خلفه ابن عامر(٣٩٨).

وكان ابو الدرداء هو الذي سن الحلق للقراءة(٣٩٩). وكان ابو موسى الاشعري يعلم الناس القرآن في مسجد البصرة، يجلسون اليه حلقاً(٤٠٠)، وكان يعلم القرآن خمس آيات خمس آيات(٤٠١).

وكان ابو عبدالرحمن السلمي، في مسجد الكوفة، يقرأ عشرين آية بالغداة، وعشرين آية بالعشي، ويخبرهم بموضع العشر والخمس، ويقرأ خمس آيات خمس آيات(٤٠٢). وكان ابو عبدالرحمن يبدأ بأهل السوق في القراءة، لئلا يحتبسوا عن معايشهم(٤٠٣). واقتدى به عاصم في ذلك(٤٠٤).

ولا شك في ان عدة الذين أخذوا القرآن عن الصحابة من التابعين كبير، لا يأتي عليهم حصر، لكن الذين تخصصوا بالقراءة من ذلك العدد الكبير وخلفوا الصحابة في تعليم القرآن، كانوا معدودين، فقد اشتهر منهم في كل مصر جماعة، أخذوا القراءة عن الصحابة، وتلقاهم منهم عدد من علماء تابعي التابعين الذين اشتهروا بالقراءة بعدهم.

---

(٣٩٨) المصدر نفسه ٢/٤٥٤.

(٣٩٩) المصدر نفسه ٢/٢٤٩.

(٤٠٠) الحاكم: المستدرك ٣/٢٠٢.

(٤٠١) ابن الجزري: غاية النهاية ١/٦٠٤.

(٤٠٢) ابن سعد: الطبقات ٦/١٧٢ والذهبي. معرفة القراء ١/٤٦.

(٤٠٣) ابن الجزري: منجد المقرئين ص٨.

(٤٠٤) ابن الجزري: غاية النهاية ١/٣٤٧

المبحث الخامس: القراءة الصحيحة واركانها

تتوقف صحة القراءة على توفر عدة اركان، اشار اليها علماء القراءة منذ وقت مبكر، وقد كانت حركة الاختيار في القراءة في القرن الثاني الهجري، تستند الى تلك الاركان ويستهدي بها علماء القراءة في اختياراتهم، وتلك الشروط او الاركان هي ان تكون القراءة مروية عن الصحابة اولاً، وأن توافق خط المصحف ثانياً، ثم ان يكون للقراءة وجه في العربية ثالثاً.

واركان القراءة الصحيحة الثلاثة هذه لم تكن من صنع المتأخرين، بل وجد ركن الرواية والنقل من يوم تلقي الصحابة رضوان الله عليهم القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وسلم ووجد ركن موافقة الخط من يوم نسخت المصاحف العثمانية وارسلت الى الامصار، وكان هذان المقياسان ـ صحة الرواية وموافقة الخط ـ يعملان في توجيه نقل القراءات منذ زمن مبكر، قبل ان يبدأ التأليف وتدوين القراءات في الكتب، وقبل ان ينظر علماء العربية في اللغة، ويعملوا على وضع القواعد، ثم برزت بشكل منظم مع بداية التأليف في القراءات.

وذكر ابو بكر الانباري ان ابا عبيد القاسم بن سلام «ت ٢٢٣هـ» قد بَيَّنَ اختياره في الوقف على ما رست فيه هاء السكت في مثل قوله «يتسنه، واقتده، وحسابيه، وماهيه»[٤٠٥]: «الاختيار عندي في هذا الباب كله الوقوف عليها بالهاء، بالتعمد لذلك، لانها ان ادمجت في القراءة مع اثبات الهاء كان خروجاً من كلام العرب، وان حذفت في الوصل كان خلاف الكتاب، فاذا صار قارئها الى السكت عندها على ثبوت الهاءات اجتمعت له المعاني الثلاثة: من ان يكون مصيباً في العربية، وموافقاً للخط، وغير خارج من قراءة القراء.

واشار ابو عبيد الى هذا المعنى في كتاب «فضائل القرآن» في باب «عرض القرآن» بقوله[٤٠٦]: «قال ابو عبيد: وانما نرى القراء عرضوا القراءة على اهل المعرفة بها، ثم تمسكوا بما علموا منها، مخالفة ان يزيغوا عما بين اللوحتين بزيادة

---

(٤٠٥) ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢١١

(٤٠٦) فضائل القران ورقة ٥٠ظ.

او نقصان، ولهذا تركوا سائر القراءات التي تخالف الكتاب، ولم يلتفتوا الى مذاهب العربية فيها، اذا خالف ذلك خط المصحف، وان كانت العربية فيه اظهر بياناً من الخط. ورأوا تتبع حروف المصاحف وحفظها عندهم كالسنن القائمة، التي لا يجوز لاحد ان يتعداها».

وقد تحدث العلماء بعد ابي عبيد عن هذه الاركان في كتبهم، بعبارات متقاربة، فقال مكي بن ابي طالب، وهو يتحدث عن اركان القسم الذي تصح به القراءة[٤٠٧]: «وهي: أن ينقل عن الثقات الى النبي صلى الله عليه وسلم ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعاً، ويكون موافقاً لخط المصحف». وقد نقل ما قاله مكي في اركان القراءة الصحيحة كل من علم الدين السخاوي[٤٠٨]، والزركشي[٤٠٩]، وابن حجر[٤١٠].

ثم جاء من انتهى اليه علم القراءات شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد الجزري «ت ٨٣٣هـ» فأفاض في بيان تلك الاركان، وقال[٤١١]: «كل قراءة وافقت العربية، ولو بوجه، ووافقت احد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها ـ فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها». ثم فصّل كل ركن من هذه الاركان بما يكشف معناه، وقد قال السيوطي[٤١٢]: «واحسن من تكلم في هذا النوع امام القراءة في زمانه شيخ شيوخنا ابو الخير الجزري».

وسوف نتحدث عن هذه الاركان، لمعرفة حقيقة كل واحد منها، وبيان كيفية استخدام هذه الاركان في التمييز بين القراءات الصحيحة وغيرها.

الاول: الرواية وصحة النقل

المقصود بهذا الركن هو ان تكون القراءة مروية عن واحد او اكثر من الصحابة الذين سمعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وَقَرَؤوا بين يديه[٤١٣]. وثبوت الرواية

---

(٤٠٧) الابانة ص١٨ وأنظر ص٤٩.
(٤٠٨) جمال القراء ورقة ١٥٤ ظ.
(٤٠٩) البرهان ١/٣٣.
(٤١٠) فتح الباري ٩/٣٢.
(٤١١) النشر ١/٩.
(٤١٢) الاتقان ١/٢١٠.
(٤١٣) ابن الجزري : النشر ١/١٣.

مع صحة الاسناد هو اهم ما علق عليه العلماء صحة القراءة، فلا بد اولاً من ثبوت النقل ثم ينظر في توفر الشروط الاخرى بعد ذلك[414].

قال القسطلاني: الاسناد أعظم مدارات هذا الفن، لان القراءات سنة متبعة ونقل محض، فلا بد من اثباتها وصحتها، ولا طريق الى ذلك الا بالاسناد فلهذا توقفت معرفة هذا العلم عليه، وقد حدوه بأنه الطريق الموصلة الى القرآن، وهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الامة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة[415].

ولذلك لابد في القراءة من المشافهة والسماع[416]. فلو حفظ انسان الشاطبية مثلاً فليس له ان يقرأ بما فيها، ان لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً، لان في القراءات شيئاً لا يحكم الا بالسماع والمشافهة[417]. وقد ميز علماء القراءة بين اخذ القراءات عن الشيوخ مشافهة وتلاوة وبين حفظها من كتب القراءة دون مشافهة العلماء بها، قال ابو عمرو الداني في اول كتابه الكبير «جامع البيان في القراءات السبع المشهورة»[418]: «وأفردت قراءة كل من الائمة برواية من اخذ القراءة عنه تلاوة، وادى الحروف عنه حكاية، دون رواية من نقلها سماعاً في الكتب ورواية في الصحف، اذ الكتب والصحف غير محيطة بالحروف الجلية، ولا مؤدية عن الالفاظ الخفية، والتلاوة محيطة بذلك ومؤدية عنه».

وجاءت روايات عن عدد من الصحابة والتابعين تؤكد ان القراءة سُنَّةٌ، اي انها تتلقى ولا يجوز معها الرأي والاجتهاد. فقد روي عن زيد بن ثابت انه قال: «القراءة سُنَّةٌ» وفي رواية اخرى: «القراءة سُنَّةٌ فاقرؤوه كما تجدونه». وقال عروة بن الزبير: «ان القراءة سُنَّةٌ من السنن، فاقرأوا كما اقرئتموه». وقال عامر الشعبي: «القراءة سُنَّةٌ، فاقرأوا كما قرأ اولوكم». وقال محمد بن المنكدر: «القراءة

---

(٤١٤) انظر السيوطي: الاتقان ١/٢١٣.
(٤١٥) القسطلاني: لطائف الاشارات ١/١٧٢.
(٤١٦) ابن الجزري: النشر ٢٠/٢٥٨.
(٤١٧) القسطلاني: لطائف الاشارات ١/١٧١
(٤١٨) جامع البيان ورقة ٢و.

سُنَّةٌ يأخذها الآخر عن الاول»[٤١٩]قال: ابو عمرو الداني[٤٢٠] «والخبار الواردة عن السلف والائمة والعلماء بهذا المعنى كثيرة».

وفي كتاب القراءة واخبار القراء، امثلة كثيرة وشواهد متعدد، على ان قراءات الائمة منقولة عمن تقدمهم حتى تنتهي الى الصحابة رضوان الله عليهم. فيذكر ابن مجاهد ان ابا عمرو بن العلاء امام اهل عصره في اللغة وقارىء اهل البصرة كان «لا يقرأ بما لم يتقدمه فيه أحد». ثم يروي ابن مجاهد عن الاصمعي انه سمع ابا عمرو يقول: لولا انه ليس لي ان اقرأ الا بما قريء به لقرأت حرف كذا كذا، وحرف كذا كذا»[٤٢١].

ويذكر مكي بن ابي طالب في كتاب «التبصرة في القراءات» ان ابا زيد اللغوي قال[٤٢٢]: «قلت لابي عمرو: أكُلّ ما أخذتهُ وقرأت به سمعْتَهُ؟ قال: لو لم اسمَعْه لم أقرأ به، لان القراءة سنة».

وقال الفراء في كتابه «معاني القرآن»[٤٢٣]: «وقد اخبرني بعض المشيخة، لظنه الكسائي: انه بلغه ان بعض القراء قرأ «أما أنا خير»[٤٢٤]، وقال لي هذا الشيخ: لو حفظت الاثر فيه لقرأت به».

وهذا المعنى وهو ان القراءة سنة، لم يكن يلتزم به علماء القراءة فحسب، وانما ذكره اهل اللغة والنحو والتفسير والتاريخ ايضاً، فقال شيخ النحاة وامامهم سيبويه[٤٢٥]: «فأما قوله عز وجل «انا كل شيء خلقناه بقَدَر» (القمر ٤٩)، فانما جاء على: زيداً ضربت، وهو عربي كثير، وقد قرأ بعضهم «واماً ثمود فهديناهم»، الا ان القراءة لا تخالف، لانها السنة».

---

(٤١٩) انظر ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٥٢ظ. وابن مجاهد: كتاب السبعة ص٤٩ ـ ٥٥.
(٤٢٠) جامع البيان ورقة ١٢ ظ.
(٤٢١) كتاب السبعة ص٤٨، وانظر الذهبي: معرفة القراء ١/ ٨٥، وابن الجزري: غاية النهاية ١/ ٢٩٠.
(٤٢٢) التبصرة ورقة ٢ظ.
(٤٢٣) معاني القران ٣/ ٢٥.
(٤٢٤) يعني قوله تعالى «أمْ انا خَيْرٌ مِنْ هذا الذي هو مَهِينٌ» (الزخرف ٥٢).
(٤٢٥) الكتاب ١/ ٧٤.

وقال الزجاج في كتابه «معاني القرآن واعرابه»، وهو يتحدث عن حركة الدال من كلمة «الحمد» في اول فاتحة الكتاب[٤٢٦]: «فأما القرآن فلا يقرأ فيه الا بالرفع، لان السنة تتبع في القرآن، ولا يلتفت فيه الى غير الرواية الصحيحة التي قرأ بها المشهورون بالضبط والثقة».

وقال ابو علي الفارسي، وهو يتحدث عن اماله الالف من كلمة «مالك» في سورة الفاتحة والا مالة شيء[٤٢٧]، وليس ما جاز في قياس العربيـة تسوغ التـلاوة به، حتى ينضم الى ذلك :الاثر المستفيض بقراءة السلف واخذهم به، لان القراءة سنة.

وقال ابن جني عن القراءة بأنها «تُؤْثَرُ رواية ولا تُتَجَاوَزُ»[٤٢٨]. وقال ابن هشام، صاحب السيرة، وهو يتحدث عن قوله تعالى في قصة الافك «والذي تولى كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم» (النور ١١): «قال ابن هشام: يقال: كِبْرهُ وكُبْرهُ في الرواية،واما في القرآن فكِبْرهُ بالكسر»[٤٢٩].

ونجد في كتاب «السبعة» لابن مجاهد امثلة تبين مدى حرص علماء القراءة على الضبط والاتقان والصدق. من ذلك ما ذكره ابن مجاهـد عن قراءة حمـزة لكلمة «الصراط» وانه «كان يشمن الصاد، فيلفظ بها بـين الصاد والـزاي، ولايضبطها الكتاب»[٤٣٠]، وقال عن وقف حمزة على كلمة مستهزؤون» (البقـرة ١٤)[٤٣١]: «ولا يضبط الا باللفظ».

ومن تلك الامثلة ما ذكره ابن مجاهد عن الهمزة في قوله: « وما يشعركم أنها» (الانعام ١٠٩)[٤٣٢]: «قرأ نافع وعاصم في رواية حفص والكسـائي واحسب ابن عامر، «أنها» بالفتح. واما ابـو بكر بن عيـاش فقال يحيى عنـه انه لم يحفظ عن عاصم كيف قرأ كسراً ام فتحاً». ومثل هذا ذكره ابن مجاهد في حركة الشين من

---

(٤٢٦) معاني القرآن واعرابه ١/ ٧.
(٤٢٧) الحجة ١/ ٣٩، وانظر: ابو حيان: البحر المحيط ١/ ٢٠
(٤٢٨) الخصائص ١/ ٣٩٨
(٤٢٩) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٢
(٤٣٠) كتاب السبعة ص١٠٦
(٤٣١) المصدر نفسه ص١٤٢
(٤٣٢) المصدر نفسه ص ٢٦٥

«انشـزوا» (المجادلـة ١١)، فقال[٤٣٣]: «عن يحيى عن ابي بكـر: لم احفظها عن عاصم».

ومن ذلك ايضاً ما قاله ان مجاهد نفسه عن القراءة في كلمة « فيقول» (الفرقان ١٧): «وليس عندي عن ابي بكر عن عاصم في (فيقول) شيء[٤٣٤]».

وكل هذه الاخبار والاقوال تؤكد معنى واحداً هو ان القراءات لم تكن نتيجة احتهاد القراء، او اعمال فكرهم في حمل الكلام على ماهو انسب، بل هي مروية عن الصحـابة الـذين اخذوا القـرآن عن النبي صلى الله عليـه وسلم وقـد قـال ابن الجزري[٤٣٥] «ان من يزعم ان أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن بهم ما هم منـه مبرؤون وعنـه منزهـون». وقال في موضع اخر[٤٣٦]: «نعوذ بالله من قراءة القرآن بالرأي بالتشهي، وهـل يحل لمسلم القراءة بما يجد في الكتابة من غير نقل؟».

ولم يكن هذا الركن الاساسي في صحة القراءة اقوالاً تتـردد على الالسنـة او تسرد في الكتب، وانما، وراءه جهد كبير في تلقي القراءة وعرضها، ويكفي المرء من ذلك ان ينظر في مقدمات الكتب المؤلفة في القراءات، حيث يذكر مؤلفوها اسمـاء القراء ورواتهم، ومن نقل قراءاتهم عنهم ليجد هذا المعنى واضحاً.

الثاني: موافقة خط المصحف:

أجمع المسلمون على ان المصاحف التي ارسلها عثمان بن عفان رضي الله عنه الى الامصار الاسلامية، وتركوا ما عداها من صحف او مصاحف مكتوب عليـه شيء من القرآن وتركوا ايضاً كل قراءة تخالف خط تلك المصاحف، وقرؤوا بالقراءة التي توافق الخط، وكانت الكتابة العربية آنـذاك: ـ تمتاز بخلـوها من عـلامات الحركات، ومن نقط الاعجام. فساعد ذلك على الاحتفاظ ببعض قراءات الامصار،

(٤٣٣) المصدر نفسه ص٦٢٩.

(٤٣٤) المصدر نفسه ص٤٦٢.

(٤٣٥) النشر ٢/ ٢٦٤.

(٤٣٦) المصدر نفسه ٢/٢٦٣

خاصة القراءة التي لا تقتضي تغيير رسم الكلمة فثبت اهل مصر من الامصار الاسلامية على ما تلقوه من قراءات موافقة للخط عن الصحابة الذين نزلوا بينهم، وتركوا ما كان من القراءات خارجاً عن خط المصاحف.

وهكذا صارت موافقة القراءة للخط ركناً من اركان القراءة الصحيحة و أجتمع القراء على ترك كل قراءة تخالف المصحف»[437]. من مثل ما روى بعض الصحابة من حروف تخالف خط المصاحف العثمانية عدّها العلماء شاذة بسبب ذلك.

وقد استعمل مقياس موافقة الخط في رد ما خالفه من قراءات، قال ابو زكريا الفراء[438]: «وقوله «فما آتان الله» (النمل ٣٦)، ولم يقل «فما آتاني»، لانها محذوفة الياء من الكتاب. فمن كان يستجيز الزيادة في القرآن من الياء والواو واللاتي يحذفن، مثل قوله «ويدع الانسان بالشر». فيثبت الواو، وليست في المصحف، أو يقول: «المنادي»، لـ «المناد» ـ جاز له ان يقول «أتمدونن» باثبات الياء، وجاز له ان يحركها الى النصب كما قيل: «ومالي لا أعبد» (سورة يس ٢٢)، فكذلك يجوز «فما آتاني الله» ولست اشتهي ذلك، ولا آخذ به اتباع المصحف اذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القراء أحب الي من خلافة، وقد كان ابو عمرو يقرأ «ان هذين لساحران»[439]، ولست اجترىء على ذلك. وقرأ «فأصدق وأكون»[440] فزاد واواً في الكتاب، ولست أستحب ذلك».

وروى ابن مجاهد عن خلف بن هشام انه قال[441] «سمعت الكسائي يقول: السين في «الصراط» اسير في كلام العرب، ولكن اقرأ بالصاد، اتبع الكتاب، الكتاب بالصاد».

وكان الزجاج قد استخدم مقياس موافقة الخط في كتابه «معاني القرآن واعرابه» عن نطاق كبير، من ذلك قوله[442] «القراءة بخلاف ما في المصحف لاتجوز،

---

(٤٣٧) ابو بكر الانباري: ايضاح الوقف والابتداء ١/٢٨٢.
(٤٣٨) معاني القرآن ٢/٢٩٣.
(٤٣٩) يعني قوله تعالى «ان هذان لساحران» (طه ٦٣).
(٤٤٠) يعني قوله تعالى «فاصدق واكن» (المنافقون ١٠).
(٤٤١) كتاب السبعة ص١٠٧.
(٤٤٢) معاني القرآن واعرابه ١/٣٧٤.

لان المصحف مجمع عليه، ولا يعارض الاجماع برواية لا يعلم كيف صحتها».

وقال الزجاج في قوله تعالى «ملاقوا ربهم» (البقرة ٤٦): ان المعنى ملاقون ربهم. ثم قال[٤٤٣]: «ولا يجوز في القرآن اثباتها، لانه خلاف للمصحف، ولا يجوز أن يقع شيء في المصحف مجمع عليه فيخالف، لان اتباع المصحف اصل اتباع السنة».

وقال في قوله تعالى «اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين» (البقرة): «قرأ الحسن، رحمة الله عليه: أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعون. وهو جيد في العربية، الا انني اكرهه لمخالفته المصحف. والقراءة انما ينبغي ان يلزم فيها السنة. ولزوم السنة فيها ايضاً اقوى عند اهل العربية، ان الاجماع في القراءة انما يقع على المعنى الجيد البالغ»[٤٤٤].

واستخدم هذا الركن في الحكم على قراءة بكاملها، فقد ذكر ابن الجزري عن قراءة محمد بن محيصن المكي «ت١٢٣ هـ»[٤٤٥]: «ولولا ما فيها من مخالفة المصحف لالحقت بالقراءات المشهورة».

وتظهر قوة هذا الركن في قبول القراءة او ردها من موقف القراء مما اقدم عليه محمد بن احمد بن ايوب المعروف بابن شنبوذ «ت٣٢٨هـ» فقد «كان يرى جواز القراءة بما صح سنده، وان خالف رسم المصحف»[٤٤٦]، وذكر ابن النديم في كتاب «الفهرست» امثلة لما قرأ به من ذلك: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة (صالحة) غصباً».. و «اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة (فامضوا) الى ذكر الله». بزيادة كلمة «صالحة» في الآية الاولى، واستبدال «فامضوا» بكلمة «فاسعوا» في الثانية[٤٤٧].

---

(٤٤٣) المصدر نفسه ١/٩٧.

(٤٤٤) المصدر نفسه ١/٢١٩.

(٤٤٥) غاية النهاية ٢/١٦٧.

(٤٤٦) القسطلاني: لطائف الاشارات ١/١٠٥.

(٤٤٧) الفهرست ص٣١.

وكان قد ناهضه امام القراءة في عصره ابو بكر بن مجاهد بسبب قراءاته تلك، وعقد له الوزير ابن مقلة مجلساً بحضور ابن مجاهد وجماعة من العلماء والقضاة وكتب عليه فيه المحضر، واستتيب عن مذهبه بعد اعترافه به[448].

وقد اورد ابن النديم صورة كتاب رجوع ابن شنبوذ عن مذهبه في القراءة بما خالف خط المصحف، وهو: «يقول محمد بن احمد بن ايوب، قد كنت اقرأ حروفاً تخالف ما في مصحف عثمان المجمع عليه، والذي اتفق اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قراءاته، ثم بان لي أن ذلك خطأ، وانا منه تائب، وعنه مقلع، والى الله جل اسمه منه بريء، اذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لايجوز خلافه، ولا ان يقرأ بغير ما فيه»[449].

وانعقد بذلك الاجماع على ترك كل قراءة تخالف خط المصحف سواء كانت المخالفة بابدال أم زيادة او تقديم او تاخير، قال ابن قتيبة عن القراءات[450]: «كل ما كان منها موافقاً لمصحفنا، غير خارج عن رسم كتابه جاز لنا ان نقرأ به، وليس لنا ذلك فيما خالفه». وقال ابن ابي داود[451]: «لا نرى ان نقرأ القرآن الا لمصحف عثمان، الذي اجتمع عليه اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم...».

ولم يكن لخط المصحف اي تأثير في نشأة القراءات او وجودها، وقد وَهَمَ قلة من الدارسين حين ذهبوا الى ان قسماً من القراءات نشأ بسبب تجرد الخط العربي القديم من علامات الحركات وخلوه من نقط الاعجام[452].

---

(448) الذهبي: معرفة القراء ١/٢٢٣، وابن الجزري: غاية النهاية ٢/٥٤.

(449) الفهرست ص٣٢. وانظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٨٩.

(450) تاويل مشكل القرآن ص٤٢.

(451) كتاب المصاحف ص٥٤.

(452) كان في طليعة من ادعى ذلك هم المستشرقون، مثل جولد تسيهر في كتابه «مذاهب التفسير الاسلامي ص٨ ـ ٩»، وتابعه بروكلمان في كتابه «تاريخ الادب العربي ١/ ٤٠»، واوتوبرتزل في مقدمته لكتاب «التيسير في القراءات السبع» للداني «انظر ص ي ه» وآرثر جفري في مقدمته لكتاب «المصاحف» لابن ابي داود «ص٧»، وقلدهم في ذلك بعض الدارسين العرب مثل جواد علي في مقالته «لهجة القرآن» المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٥، وعبدالله خورشيد في كتابه «القرآن وعلومه في مصر ص٩»، وصلاح الدين المنجد في كتابه «دراسات في تاريخ الخط العربي ص٤٢».
وقد كتب بعض الباحثين فصولاً ورسائل في بيان عدم صحة هذا المذهب. من ذلك ما كتبه عبدالوهاب حمودة في كتابه «تاريخ القرآن ص٢٠٩ ـ ٢١٦»، وكتب عبدالفتاح اسماعيل شلبي كتابه «رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات». والشيخ عبدالفتاح القاضي كتابه «القراءات في نظر المستشرقين والملحدين» لمناقشة هذا الموضوع.

ويكفينا دليلاً على عدم صحة هذا القول ان نذكر جملة حقائق تتعلق بتاريخ القراءات والرسم، منها:

اولاً: ان المنهج الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعلم القرآن وقراءته هو التلقي مشافهة، وكان دور المصاحف المكتوبة هو معاضدة النقل الشفهي، فلم تكن قراءة القرآن تعتمد على ما هو مكتوب في الصحف، بل كان «الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب»[٤٥٣]. وقد حذر العلماء من اخذ القرآن عن مصحفي[٤٥٤]. وهو الذي يقرأ في المصحف من غير ان يشافهه به العلماء الذين نقلوه مشافهة عمن سبقهم، خلفاً عن سلف[٤٥٥]. وظل هذا المنهج هو القاعدة التي سار عليها القراء في نقل القرآن الكريم وقراءته.

ثانياً: كان تعدد وجوه القراءة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وما تعدد تلك الوجوه الا الترجمة العملية للرخصة التي يشير اليها الحديث الشريف الصحيح المتواتر «ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف، فاقرأوا ما تيسر منه». وكان ما نشأ من حوار بين بعض الصحابة حول بعض القراءات هو الدافع الاول الذي دفع الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه ان يأمر بنسخ المصاحف من الصحف التي كتبت في خلافة ابي بكر الصديق وارسالها الى الامصار وترك القراءة بما سواها. فلم يكن تعدد وجوه القراءة امراً حادثاً بعد نسخ المصاحف العثمانية، بل كانت تلك الوجوه منقولة عن الصحابة الذين تلقوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نسخ المصاحف العثمانية محاولة لوضع رخصة الاحرف السبعة في اطار يحفظ القرآن ويصونه من الاختلاف والتغيير.

ثالثاً: ان المصاحف التي نسخت بأمر عثمان رضي الله عنه كتبت على القراءة العامة، التي كانت يتحرى فيها نطق النبي صلى الله عليه وسلم وحين ارسلت الى الامصار الاسلامية ثبت اهل كل مصر على ما كانوا تلقوه من قراءات عن الصحابة

---

(٤٥٣) ابن الجزري: النشر ٦/١.
(٤٥٤) ابو احمد العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف ص١٠.
(٤٥٥) ابو احمد العسكري: تصحيفات المحدثين ص٨.

الذين نزلوا بينهم، مما يوافق خط المصحف، وتركوا القراءة بما يخالفه، ولو كان تجرد الخط من نقط الاعجام وعلامات الحركات هو سبب نشأة القراءات لما وجدنا قراءات تخالف خط المصحف ولا نحصر الخلاف فيما يحتمله الرسم، الا ان التاريخ الحق يشير الى ان هناك قراءات كان يقرأ بها بعض الصحابة وهي تخالف خط المصحف، لكن الاجماع على المصحف العثماني صير تلك الوجوه المخالفة كالمنسوخة[٤٥٦].

فلم يكن خط المصحف اذن سبباً في وجود القراءات القرآنية لولا اختلافها. ولكن الخط كان سبباً في حفظ الاختلاف الموجود اصلاً، لان القراءة سنة متبعة[٤٥٧]. وكان الخط حين عدت موافقته شرطاً في قبول القراءة، مقياساً يمنع ما لايدخل في نطاقه مما صح من الروايات، فالرسم لا ينشيء القراءة مقياساً ولكنه يحكم عليها[٤٥٨].

ومما يؤكد ما ذكرناه ان العلماء يروون ان حماداً الرواية كان حفظ القرآن من المصحف فكان يصحف نيفاً وثلاثين حرفاً[٤٥٩]. من ذلك قوله تعالى: وأوحى ربك الى النحل أن آتخذي من الجبال بيوتاً» (النحل ٦٨) صحفها حماد الى «النخل» بالخاء. ومنه قوله تعالى: «وما كانَ استغفارُ إبراهيم لأبيه الا عن مَوعدَةٍ وعدها إياه» (التوبة ١١٤)، صحفها حماد الى «أباه» بالباء. ومنه ايضاً قوله تعالى: «هُمْ احسَنُ اثاثاً ورِءياً» (مريم ٧٤) صحفها حماد الى «وزيا» بالزاي، وهناك امثلة اخرى للاخطاء التي وقع فيها حماد نتيجة لاخذه القرآن من المصحف دون ان يتعلمه من علماء القراءة بالمشافهة[٤٦٠].

---

(٤٥٦) انظر: مكي: الابانة ص١٠.
(٤٥٧) عبدة الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرانية ص٧٦.
(٤٥٨) عبدالصبور شاهين: القراءات القرانية ص ٢١٠.
(٤٥٩) ابو احمد العسكري. شرح ما يقع فيه التصحيف ص١٢.
(٤٦٠) انظر ابو احمد العسكري: تصحيفات المحدثين ص٤٢، وشرح ما يقع فيه التصحيف «هـ» ص١٢ وحمزة الاصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف ص٥ ـ ٦

وهذه الامثلة المروية عن حماد لم تكن تروى على انها قراءات، بل تذكر في كتب التصحيف والتحريف على انها تصحيفات وقعت من بعض السابقين، ليحذر القارىء من الوقوع في مثلها، بسبب الاعتماد على الصحف وحدها في اخذ القرآن والعلم. ولو كان الرسم هو السبب في نشأة القراءات لَعُدَّ حماد احد القراء المشهورين من السبعة او من فوقهم. لكن هذه التصحيفات تنقل كدليل على ان المنهج الحق في تعلم القرآن هو التلقي بالمشافهة والسماع عن علماء القراءة، فان حماداً كان يروي جل اشعار العرب وكان في الكوفة مثل ابي عمرو بن العلاء في البصرة، لكن ذلك لم يمنع من وقوعه في تلك التصحيفات حين اهمل المنهج الصحيح في تعلم القرآن حين حفظه من الصحف من غير ان يتلقاه مشافهة عن القراء.

الثالث: موافقة العربية:

نزل القرآن الكريم والعرب يتكلمون باللغة على هدي مما توارثوه وتعارفوا عليه من مجاري الكلام وطرائقه. وسمع المسلمون الاولون القرآن الكريم يتلى بلسانهم، وكان نزول القرآن على سبعة احرف قد اتاح لمن لم يستطع منهم ان يتلوه على حرف ان يتلوه على الحرف الذي يستطيعه.

وكان تقدم السنين في القرن الهجري الاول، وما تلاه من امتداد بلاد الاسلام ودخول الناس فيه أفواجاً، قد دفع الى ان يحرص بعض المهتمين بقضية اللغة وسلامتها على التفكير بتدوين قواعد اللغة، وكانت أولى الخطى العملية لذلك التفكير ما قام به ابو الاسود الدؤلي من نقط المصاحف.

وتابع تلامذة أبي الاسود ذلك الجهد، وهو تاريخ اوسع من ان نحيط به ها هنا وقد انتهى بدراسة اللغة وتحليلها وتدوين قواعدها، لكن الملاحظ على ذلك الجهد الذي يمثله كتاب سيبويه اشمل تمثيل، انه يهتم بالامثلة المطردة، ويعّد ما جاء مخالفاً لها شاذاً يحفظ ولا يقاس عليه، وهذا منهج قصد به تيسير تعليم اللغة، وهو المنهج المناسب حقاً لهذه الغاية.

واتخاذ القواعد المطردة التي نجدها في كتب النحو، مقياساً لدراسة ظواهر سابقة لتاريخ وضع تلك القواعد، وفي وقت كان الناس فيه يتكلمون باللغة دون تأثر بقاعدة نحوية او منطلق لغوي موضوع ـ اخلال بالمنهج العلمي السديد، لان المنهج المناسب لدراسة اللغة وتحليلها هو المنهج الوصفي الذي يقوم على دراسة ما كان، لا ينبغي ان يكون.

وكان مقياس قبول القراءة، بعد نسخ المصاحف، يقوم على اساس صحة نقلها وعدم خروجها عن الرسم، ولم يكن من بين شروط القراءة الصحيحة موافقة العربية، لان هذا الشرط لم يكن له مكان في وقت كانت تعدّ فيه العربية هي ما كان يتكلمه العرب كلهم، لا ما وجد في كتب النحو فيما بعد. وبعد ان استقرت قواعد النحاة وعُد ما خرج عن المطرد منها شاذاً نظر بعض العلماء الى القراءات من خلال ذلك المبدأ، خاصة النحاة، وتحقيقاً لان تكون القراءة القرآنية باللغة المثل الاعلى في عربيتها جعلت موافقة العربية شرطاً لقبول القراءة، وتعرضت بعض القراءات المروية لنقد من جراء هذا المقياس. وان كان ذلك في نطاق ضيق، من النحويين خاصة.

والذي اجمع عليه علماء القراءة وعلماء العربية هو ان القراءة لا تجوز بالقياس ولا بالاجتهاد ولابد في القراءة من صحة النقل اولاً وموافقة الخط ثانياً لكن النحاة اشترطوا ايضاً ان تكون القراءة موافقة للكثير من كلام العرب، ولا يكتفون بصحة الرواية، ومن ثم وصفوا بعض القراءات بالشذوذ او الضعف من حيث العربية، وهو موقف يأباه علماء القراءة، لا يلتفتون الى القائلين به ـ والحق معهم ـ لان القواعد التي وضعها النحاة جاءت لاحقة، ووضعت لغرض تعليمي بحت، ينفي الشذوذ ولا يعني الا بالامثلة المطردة، والقراءات مهما كانت من حيث الصحة والشذوذ، عند النحويين، فانها اكثر تعبيراً عن واقع العربية في فترة الاسلام، من حيث الاصوات والمفردات والتراكيب.

وخير ما يمثل القراء من هذه القضية هو ما قاله ابو عمرو الداني في كتابه «جامع البيان في القراءات السبع المشهورة» وهو يتحدث عن قراءة ابي عمرو بن

العلاء لقوله: «بارئكم» (البقرة ٥٤) بالاسكان مكان حركة الاعراب. قال[٤٦١]: «وأئمة القراءة لا تعمر في شيء من حروف القرآن على الافشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على علي الاثبت في الاثر، والاصح في النقل، والرواية اذا ثبتت لا يردها قياس عربية ولا فشو لغة، لان القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها».

وظل ما قاله الداني يمثل موقف القراء من هذا الموضوع، وقد صرح ابن الجزري انه «من المحال ان يصح في القراءة ما لا يسوغ في العربية بل قد يسوغ في العربية مالا يصح في القراءة، لان القراءة ما لايسوغ في العربية بل قد يسوغ في العربية ما لايصح في القراءة، لان القراءة سنة متبعة، يأخذها الآخر عن الاول»[٤٦٢].

وقد عَدَّلَ ابنُ الجزري، نتيجة هذا الموقف، في صيغة الركن الثالث من اركان القراءة الصحيحة، فقال مرة[٤٦٣]: «كل قراءة وافقت العربية مطلقاً»، وقـ اخرى[٤٦٤]: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه» فاضاف «مطلقاً» و «ولو بوجه». وقد بين الغرض من هذه الاضافة[٤٦٥]: «وقولنا في الضابط و «ولو بوجه» نريد به وجهاً من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجمعاً عليه ام مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، اذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقاه الائمة بالاسناد الصحيح، اذ هو الأصل الاعظم والركن الاقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية. فكم من قراءة انكرها بعض اهل النحو او كثير منهم ولم يعتبر انكارهم بل اجمع الائمة المقتدى بهم من السلف على قبولها، كاسكان «بارئكم» (البقرة ٥٤) و«يأمركم» (البقرة ٦٧)......».

وكان علماء القراءة يشيرون الى ان القراءة لاتجوز بحسب ما تقتضيه قواعد النحو، الا ان تكون منقولة نقلاً صحيحاً[٤٦٦] لكن بعض علماء السلف مالوا الى

---

(٤٦١) جامع البيان ورقة ١٧١و. وانظر السيوطي : الاتقان ١/ ٢١١.
(٤٦٢) النشر ١/ ٤٢٩.
(٤٦٣) منجد المقرئ ص١٥.
(٤٦٤) النشر ١/ ٩.
(٤٦٥) المصدر نفسه ١/ ١٠. وانظر السيوطي: الاتقان ١/ ٢٠٦
(٤٦٦) انظر مثلاً: ابو بكر الانباري ايضاح الوقف والابتداء ٦ ٢١٤ و٣١٩، ٣٢١

قراءات توافق العربية لكنها غير منقولة، فتركها الناس لذلك، وهو ما ذكرناه من ان القراءة سنة متبعة لا يكفي فيها صحة الوجه في العربية، من ذلك ان ابا عبيد ذكر قراء مكة الذين انتهت اليهم القراءة بعد جيل التابعين، وهم عبدالله بن كثير وحميد بن قيس الاعرج ومحمد بن محيصن. وقال عن ابن محيصن[٤٦٧]: «وكان ابن محيصن: اعلمهم بالعربية واقواهم عليها، لكن ابن مجاهد قال عن قراءته[٤٦٨].

«كان لابن محيصن اختيار في القراءة على مذهب العربية، فخرج به عن اجماع اهل بلده، فرغب الناس عن قراءته، واجمعوا على قراءة ابن كثير لاتباعه».

وكان عيسى بن عمر الثقفي، النحوي البصري «ت١٤٩هـ» قد عرض القرآن على عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي وعاصم الجحدري، وروي عن ابن كثير وابن محيصن، وكانت له اختيارات في القراءة على قياس العربية[٤٦٩]، وقال ابو عبيد: «وكان عيسى بن عمر عالماً بالنحو، غير انه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية، يفارق القراءة العامة، ويستنكرها الناس»[٤٧٠].

ولعل اوضح مثال يدل على ان القراءة سنة تروى، وليس فيها مجال للقياس، ولا لما يجوز في العربية، اذا لم يصح النقل، ما كان من مذهب ابي بكر محمد بن الحسن بن مقسم العطار البغدادي المتوفي سنة ٣٥٤هـ[٤٧١] فقد كان من احفظ الناس لنحو الكوفيين واعرفهم بالقراءات[٤٧٢]، لكنه زعم ان كل ما صح عنده في العربية من القرآن، يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، وان لم تكن لها مادة[٤٧٣].

---

(٤٦٧) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٠

(٤٦٨) ابن الجزري: غاية النهاية ٢/١٦٧.

(٤٦٩) ابن الجزري: غاية النهاية ١/٦١٣

(٤٧٠) علم الدين السخاوي: جمال القراء ورقة ١٥٠ظ وابن الجزري: غاية النهاية ١/٦١٣.

(٤٧١) هذا هو المشهور في المصادر عن تاريخ وفاته الا ان ابن النديم ذكر في الفهرست ص٣٢، ان وفاته كانت سنة ٣٦٢هـ.

(٤٧٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/٢٠٦. وابن الجزري: غاية النهاية ٢/١٤٢.

(٤٧٣) ابو البركات الانباري: نزهة الاباء ص٢٨٩. وانظر الذهبي: معرفة القراء ١/٢٤٨ والسيوطي: بغية الوعاة ١/٨٩.

وذكر الخطيب البغدادي امر ابن مقسم العطار، وقال[٤٧٤]: «ومما طعن عليه به انه عمد الى حروف من القرآن فخالف الاجماع، وقرأها واقرأها على وجوه ذكر إنها تجوز في اللغة العربية، وشاع ذلك عنه اهل العلم فأنكروه عليه، وارتفع الإمر الى السلطان، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء، فأذعن بالتوبة، وكتب محضر توبته، واثبت جماعة من حضر ذلك المجلس خطوطهم فيه بالشهادة عليه». ثم نقل الخطيب البغدادي كلاماً لابي طاهر بن ابي هاشم المقريء، صاحب ابي بكر بن مجاهد في شأن ابن مقسم العطار، نستطيل ذكره هنا، وانما نكتفي بما تشير اليه هذه القصة من اجماع علماء القراءة على ترك القراءة بكل وجه لم يثبت نقله، وان كان موافقاً للخط، جيداً في العربية.

المبحث السادس: القراءة الشاذة:

كان المسلمون يقرؤون القرآن، قبل نسخ المصاحف وارسالها الى الامصار في خلافة عثمان، على وجوه من النطق، اخذوها من الصحابة الذين علموهم القرآن، وكان بعض تلك الوجوه يخالف خط المصاحف، ثم ترك الناس في الامصار الاسلامية كل قراءة خارجة عن خط المصاحف التي ارسلها عثمان رضي الله عنه وقرؤوا بالوجوه التي يحتملها الخط، كما مر بيان ذلك.

ويعدّ علماء القراءة الوجوه المخالفة للخط من بعض آثار رخصة الاحرف السبعة، وانه مما رخص به في القراءة قبل اجتماع المسلمين على المصاحف التي نسخت في خلافة عثمان فترك الناس القراءة بتلك الوجوه، وظل العلماء يذكرون تلك الوجوه وينقلونها في الكتب بوصفها جزءاً من تاريخ القراءة، لكنهم يمنعون من القراءة بها في المصحف، لمخالفتها خط المصحف، ولانها جاءت من طريق الآحاد المخالف لاجماع المسلمين[٤٧٥].

---

(٤٧٤) تاريخ بغداد ٣/٢٠٦

(٤٧٥) انظر مكي: الابانة ص٢٠ ـ ٢١، ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٨١.

وقد سميت القراءات المخالفة خط المصحف بالقراءات الشاذة، تمييزاً لها من القراءات الصحيحة، ومعنى الشذوذ في كلام العرب التفرق والتفرد[٤٧٦]، وقال علم الدين السخاوي: الشاذ مأخوذ من قولهم شذ الرجل يشذ شذوذاً، اذا انفرد عن القوم، والذي لم يزل عليه الائمة الكبار القدوة في جميع الامصار من الفقهاء والمحدثين وائمة العربية توقير القرآن واجتناب الشاذ واتباع القراءة ولزوم الطرق المعروفة[٤٧٧].

وقال ابو منصور الازهري[٤٧٨]: «من قرأ بحرف شاذ يخالف المصحف وخالف بذلك جمهور القراء المعروفين فهو غير مصيب، وهذا مذهب الراسخين في علم القرآن قديماً وحديثاً...»

وكان هارون بن موسى العتكي البصري «ت قبل ٢٠٠ هـ» اول من اهتم بالقراءات الشاذة في البصرة، وقال ابو حاتم السجستاني[٤٧٩]: «كان اول من سمع بالبصرة وجوه القراءات وألفها وتتبع الشاذ منها، فبحث عن اسناده هارون بن موسى الاعور، وكان من القراء، فكره الناس ذلك، وقالوا قد اساء حين ألفها...».

وقال الاصمعي «ت ٢١٥ هـ» عن هارون: «كنت اشتهي ان يضرب مكان تأليفه الحروف»[٤٨٠].

وكراهة السلف البحث في القراءات المخالفة للخط، وتسميتها بالقراءات الشاذة لا يعني ان تلك القراءات غير صحيحة النقل، او انه ليس لها اصل، ولكن لان تلك القراءات جاءت مخالفة للمصحف الذي اجمع عليه الصحابة والتابعون، ولانها جاءت من طريق الآحاد، وتعود الى فترة كان الوقت يسمح بها، وهناك ما يسوغ القراءة بها، اما بعد نسخ المصاحف واجماع الامة على مافيها، لانه يمثل نص ما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، فان القراءة بها ستكون مثار

---

(٤٧٦) ابن منظور: لسان العرب، مادة «شذذ» وابن جني: الخصائص ١/٩٦.

(٤٧٧) جمال القراء ورقة ٨٢ظ، وانظر ابو شامة المرشد الوجيز ص١٧٩.

(٤٧٨) تهذيب اللغة ٥/١٤.

(٤٧٩) ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٨١، ابن الجزري: غاية النهاية ٢/٣٤٨.

(٤٨٠) ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٨١

اختلاف بين المسلمين، وهو ما عمل عثمان رضي الله عنه على منعه حين امر بنسخ المصاحف، واحراق ما سواها.

- قال ابو عمرو بن العلاء[481]: «اني اتهم الواحد الشاذ اذا كان على خلاف ما جاءت به العامة».

ويذهب بعض العلماء الى ان ما جاء مخالفاً خط المصحف بزيادة او ابدال كلمة انما هو من قبيل التفسير. قال القاضي أبو بكر بن الطيب[482]: «وكان منهم من يقرأ التأويل مع التنزيل، نحو قوله تعالى: «والصلاة الوسطى» (البقرة ٢٣٨)، وهي صلاة العصر..». وقال ابو حيان الاندلسي ان ما جاء مخالفاً الخط هو «في الحقيقة تفسير لا قراءة»[483].

ويؤيد هذا المذهب في فهم القراءات المخالفة خط المصحف ما روي عن مجاهد بن جبر المكي «ت ١٠٣هـ» تلميذ ابن عباس انه قال: «لو كنت قرأت على قراءة ابن مسعود لم احتج ان اسأل ابن عباس عن كثير من القرآن»[484].

ومهما يكن من امر فان هذه الوجوه المخالفة للخط ظل كثير من علماء السلف ينقلونها للاستشهاد، لا للقراءة، فالفقيه والمفسر واللغوي يذكرونها في كتبهم يستشهدون بها على امر او يستنبطون منها حكماً، وما إلى ذلك، اما القراءة بها فمتروكة لما ذكرناه من مخالفتها خط المصحف وخروجها عن الاجماع، ومجيئها مجيء الآحاد من الاخبار «فكأنها منسوخة بالاجماع على خط المصحف»[485].

وقد ظل تعريف القراءة الشاذة بأنها ما صح نقله، وخالف خط المصحف سائداً، حتى عصر ابن مجاهد، حين ظهر تعريف جديد للشاذ، فنتيجة لشهرة ابن مجاهد ومكانته في علم القراءات، ولانه اختار في كتابه اشهر القراء الذين اخذوا

---

(٤٨١) المصدر نفسه ص٣٨١.
(٤٨٢) المصدر نفسه ص٢٤١.
(٤٨٣) البحر المحيط ٧/٦٥.
(٤٨٤) الداودي: طبقات المفسرين ٢/٣٠٦.
(٤٨٥) مكي: الابانة ص١٠

قراءتهم عن كبار علماء القراءة من التابعين فقد ظهر اتجاه الى عدّ ما عدا السبع من القراءات شاذاً وهو معنى جديد للقراءة الشاذة.

وكان قد نمّى هذه الفكرة وساعد على انتشارها ابن مجاهد وتلامذته، فقد ألف ابن مجاهد نفسه كتاباً ذكر فيه شواذ القراءة، كان يعتمد ابن جني في كتابه «المحتسب»، قال ابن جني(٤٨٦): «وأنا بأذن الله باديء بكتاب أذكر فيه أحوال ما شذ عن السبعة، على اننا ننحي فيه على كتاب ابي بكر احمد بن موسى بن مجاهد رحمه الله الذي وضعه لذكر الشواذ من القراء.». والف ابو طاهر عبد الواحد بن عمر بن ابي هاشم، تلميذ ابن مجاهد كتاباً في «شواذ السبعة»(٤٨٧). والف ابو علي الفارسي كتاب «الحجة» للاحتجاج للقراءات التي ذكرها ابن مجاهد في كتاب «السبعة»(٤٨٧). والف ابو علي الفارسي كتاب «الحجة» للاحتجاج للقراءات التي ذكرها ابن مجاهد في كتاب «السبعة»(٤٨٨). وظهر اثر هذا الاتجاه في تعريف الشاذ عند ابن النديم في كتاب الفهرست» فقد ذكر اولاً «اخبار القراء السبعة»، ثم ذكر «قراء الشواذ» وهم ما عدا السبعة(٤٨٩).

وهذا المعنى الجديد في وصف القراءة بالشذوذ، الذي وضع اساسه ابن مجاهد ، لم يستمر طويلاً، بالرغم من ان اثره ظل بادياً، وما حصر القراءات الصحيحة في سبع او عشر الا اثر من آثاره. لكن تعريف القراءة الشاذة بأنها ما خالف الخط خاصة عاد مرة اخرى هو المعتبر عند العلماء.

قال ابو شامة(٤٩٠): «فليس الاقرب في ضبط هذا الفصل الا ما قد ذكرناه مراراً من ان كل قراءة اشتهرت بعد صحة اسنادها وموافقتها خط المصحف، ولم تنكر

---

(٤٨٦) المحتسب ١/ ٣٤ ـ ٣٥.
(٤٨٧) ابن النديم : الفهرست ص٣٢.
(٤٨٨) الحجة ١/ ٣.
(٤٨٩) الفهرست ص٢٨ ـ ٣١.
(٤٩٠) المرشد الوجيز ص١٧٨.

من جهة العربية، فهي القراءة المعتمدة عليها، وما عدا ذلك فهو داخل في حيز الشاذ والضعيف وبعض ذلك اقوى من بعض».

وقال ابن الجزري[491]: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت احد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولايحل انكارها بل هي من الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الائمة السبعة، ام العشرة ام عن الائمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الاركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة او شاذة، او باطلة، سواء كانت عن السبعة ام عمن هو اكبر منهم. هذا هو الصحيح عند ائمة التحقيق من السلف والخلف».

(٤٩١) النشر ١/٩.

الفصل السادس
اعجاز القرآن الكريم وترجمته

المبحث الاول: معنى (اعجاز القرآن):

حين دعا رسول الله صلى ألله عليه وسلم الناس في مكة الى الاسلام وحين تلا عليهم القرآن بهرتهم هذه الدعوة الجديدة بهرتهم بما تدعو اليه من افكار وقيم، وبهرتهم بهذا الكلام الرباني الذي لم يألفوه من قبل، فكانوا بين مؤمن مخبت لله تعالى وبين معاند مجاهر بكفره وعصيانه.

لكن المعاندين كان يفزعهم القرآن وهو يتلى على الناس من حولهم فيكون له ذلك التأثير الهائل في تحويل الناس من مستنقع الكفر الى مجتمع الايمان، فشن اولئك المعاندون حملة تشكك في ربانية القرآن وفي صدق النبي صلى الله عليه وسلم لعلهم يصدون الناس عن هذه الدعوة المباركة، وقد حكى القرآن تخرصاتهم من مثل قولهم: «لو نشاء لقلنا مِثْلَ هذا إن هذا إلا أساطيرُ الاولين» (الانفال ٣١)، وقولهم «يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكرُ إنك لمجنون» (الحجر ٦) وقولهم: «أننا لتاركُوا آلهتِنا لشاعر مجنون» (الصافات ٣٦) ومثل: «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه وَأَعانَهُ عليه قومٌ آخرون، فقد جاءوا ظلماً وزوراً، وقالوا أساطيرُ الاولين اكتتبها، فهي تُملى عليه بُكرةً وأَصيلاً» (الفرقان ٤ ـ ٥)، الى آيات كثيرة في نحو هذا، تدل على انهم كانوا متحيرين في امرهم، لا تكاد تستقر نفوسهم على شيء حتى تتحول عنه.

ولم تكن أقوال المشركين الباطلة في القرآن لتوقف سير الدعوة او لتقنع المشركين أنفسهم بصدق دعواهم، لكن الله تعالى لم يدع تلك الاقاويل لتعمل عملها في النفوس الضعيفة، فرد تلك الاقاويل من ابسط طريق، تحداهم بالقرآن ان يأتوا بمثله او بعشر سور من مثله او بسورة، طيلة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: «قل لئن اجتمعت الانسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (الاسراء ٨٨)، وقال سبحانه: «أم يقولون تَقَوَّلَهُ بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين» (الطور ٣٣ ـ ٣٤). وقال: «أم يقولون افتراه قل: فأتوا بعَشر سُوَرٍ مثلِه مُفتريات وأدعوا

من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم آللّه وأن لا اله إلا هو، فهل أنتم مسلمون» (هود ١٣ ـ ١٤) وقال «وإن كنتم في رَيْبٍ ممّا نَزَّلْنَا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثلِه، وأدعوا شُهداءكم من دون آللّه أن كنتُم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعَلوا فَآتقوا النّارَ التي وقودُها الناس والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين» (البقرة ٢٣ ـ ٢٤).

ويستخلص من هذه الآيات أمران: الاول التحدي الى القرآن، وهو تحد قائم طيلة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة على السواء.

الثاني: ان المشركين عجزوا عن الاتيان بمثله او مثل بعضه وهو عجز يدل عليه النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري فلا يمكن جحود واحد من هذين الامرين[٤٩٢].

والذي يدل على انهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن انه تحداهم اليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه صلى الله عليه وسلم ونبوته، وضمن احكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا الى تخليص أنفسهم وأهليهم من حكمه بأمر قريب، هو عبادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، واكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الاوطان، وعن تسليم الاهل والذرية للسبي، فلما لم تحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها[٤٩٣].

كان عجز المشركين من العرب عن معارضة القرآن ـ اذن ـ حقيقة سلمت لها الاجيال، وكان عجز غير العرب عن ذلك أوضح، لان العرب ـ وهم المتكلمون باللغة المنزل بها عجزوا عن ذلك مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

وحين حل عصر التدوين والتأليف، بحث العلماء شتى المسائل ودرسوا مختلف العلوم فكان البحث في تلك القضية قد نال قسطاً ليس بالقليل من جهود العلماء، وعرفت المباحث المتصلة بهذا الموضوع بأسم «اعجاز القرآن» وقد ألفت فيه كتب مستقلة، وكان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ «ت ٢٥٥هـ» أقدم من عُرف له تأليف مستقل في الموضوع، فقد صنف فيه كتاب «نظم القرآن»[٤٩٤]. وقال

---

(٤٩٢) الباقلاني: اعجاز القران ص٢٤. وانظر الزركشي: البرهان ٢/٩١

(٤٩٣) الباقلاني: اعجاز القرآن ص٢٧. وانظر الخطابي: بيان اعجاز القران ص٢١ ـ ٢٢

(٤٩٤) انظر الباقلاني: اعجاز القران ص٧.

السيوطي: افرده بالتصنيف خلائق، منهم الخطابي، والرماني، والزملكاني، والامام الرازي، وابن سراقة، والقاضي ابو بكر الباقلاني[٤٩٥]. وفي العصر الحديث لم ينقطع التأليف في هذا الموضوع[٤٩٦].

ولـ[illegible] بالامكان في هذه الصفحات الاحاطة بتفصيلات موضوع استنفد جهد أجيال العلماء وكتبوا فيه الكثير من الكتب، ولكن نكتفي بالاشارة الى ما قيل في وجوه اعجاز القرآن من آراء، ونعرضها بايجاز.

المبحث الثاني: وجوه اعجاز القرآن:

تكاد مذاهب علماء السلف في وجوه الاعجاز تنحصر في ان القرآن معجز من حيث بلاغة اسلوبه وجمال نظم الفاظه ومعجز من حيث المعاني التي جاء بها، والموضوعات التي طرقها، ولم يشذ منهم في ذلك الا ابراهيم بن سيار النظام «ت ٢٢٠هـ» ومن ذهب مذهبه، فانه قال: ان الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات[٤٩٧].

وقد أنكر العلماء هذا الرأي الغريب في سر اعجاز القرآن، قال الزركشي: «وهو قول فاسد، بدليل قوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» فانه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره، هذا مع ان الاجماع منعقد على اضافة الاعجاز الى القرآن، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة اعجاز بل المعجز هو الله تعالى، إذ سلبهم قدرتهم على الاتيان بمثله، وايضاً يلزم القول بالصرفة فساد آخر وهو زوال الاعجاز بزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الاعجاز، وفي ذلك خرق لاجماع الامة فانهم اجمعوا على بقاء معجزة الرسول

---

(٤٩٥) الاتقان ٤/٣

(٤٩٦) كتب مصطفى صادق الرافعي «اعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، والدكتور حنفي محمد شرف «اعجاز القرآن البياني»، والدكتورة عائشة عبد الرحمن «الاعجاز البياني للقرآن»، وعبد الكريم الخطيب «الاعجاز في دراسات السابقين» والدكتور عمر الملا حويش «تطور دراسات اعجاز القرآن واثرها في البلاغة العربية».

(٤٩٧) انظر الخطابي: بيان اعجاز القرآن ص٢٢. والرماني: النكت في اعجاز القرآن ص١١٠ والباقلاني: اعجاز القرآن ص٤١. الزركشي: البرهان ٢/٩٣، والسيوطي: الاتقان ٤/٦

العظمى، ولا معجـزة له بـاقية سـوى القرآن، وخلـوه من الاعجـاز يبطـل كـونـه معجزة[498].

أن القرآن وهو كلام الله لا يمكن ان يوازن به كلام، فهـو لهذا معجـزة في ذاته، ولو كان اعجز الناس بقوة خارقة عنه لما كان كلام الله ولما كان معجزة، وانمـا كانت الصرفة ـ وهي صرف الهمم عن المعارضة ـ هي المعجزة التي استنـد اليها، فليس قول اسقط من القول بالصرفة فيما نقل من اقوال حول وجه اعجاز القرآن[499].

وقد لخص ابو بكر الباقلاني وجوه الاعجاز في ثلاثة اوجه[500].

أحدهما: ما تضمن من الاخبار الصـادقة عن الامـور المستقبلية، وذلـك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم اليه.

الثاني: انه كان معلوماً من حال النبي صلى الله عليه وسلم انه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن ان يقرأ، وكذلك كان معروفاً من حاله انـه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقـدمين وأقـاصيصهم وأنبائهم وسـيرهم، ثم أتى بجمل مـا وقـع وحـدث، من عظيمات الامور ومهمات السير، من حيث خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه، ونحن نعلم ضرورة ان هذا لا سبيل اليه الا عن تعلم واذا كان معـروفاً انـه لم يكن ملابساً لاهل الآثار وحملـة الاخبار ولا متـردداً الى التعلم منهم ولا كان ممن يقـرأ اليه كتاب فيأخذ منه، علم انه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحي.

والوجه الثالث: انه بـديع النظم، عجيب التـأليف، متناه في البـلاغة الى الحـد الذي يعلم عجز الخلق عنه، وهو قول اكثر العلماء. ولخص الخطابي تلـك الوجـوه بقوله: «واعلم ان القرآن انما صـار معجزة لانـه جاء بـأفصح الالفـاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعـاني من توحيـد له، عـزت قدرتـه، وتنزيـه له في صفاته، ودعاء الى طاعته وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم وحظر وابـاحة، ومن وعظ وتقـويم وامر بمعـروف ونهي عن منكر، وارشـاد الى محاسن الاخـلاق وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يُرَى شيء أولى منـه، ولا يُرَى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات

---

(٤٩٨) البرهان ٢/ ٩٤، وانظر السيوطي: الاتقان ٤/ ٧، ومحمود محمد شاكر. تقديم كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي ص٤٠.

(٤٩٩) انظر عبدالكريم الخطيب: الاعجاز في دراسات السابقين ص٣٦٥.

(٥٠٠) اعجاز القرآن ص ٤٨ وما بعدها، وانظر: ايضاً في وجوه الاعجاز: الزركشي: البرهان ٢/ ٩٢ ـ ١٠٧

الله ومن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الاعصار الباقية من الزمان، جامعاً بين الحجة والمحتج له، والدليل المدلول عليه، ليكون ذلك اوكد للزوم ما دعا اليه، وانباء عن وجوب ما امر به ونهى عنه.

ومعلوم ان الاتيان بمثل هذه الامور والجمع بين شتاتها حتى تتنظم وتتسق امر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله او مناقضته في شكله»[501]

ويشير الخطابي في مكان آخر الى وجه لم يلتفت اليه الا القليل ممن تكلموا في وجوه الاعجاز فيقول [502] «في اعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من أحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فانك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، اذا قرع السمع خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة، في حال، ومن الروعة والمهابة في اخرى، ما يخلص منه اليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى اذا اخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها اقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم ان يتحولوا عن رأيهم الاول، وان يركنوا الى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم ايماناً».

ثم يقول: «خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله، فسار الى دار اخته وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن. وبعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوافقوه على أمور أرسلوه بها، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا: اقبل ابو الوليد بغير الوجه الذي ذهب اليه، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في الموسم على النفر الذين حضروا من الانصار آمنوا به وعادوا الى المدينة فأظهروا الدين

---

(٥٠١) بيان اعجاز القرآن ص ٢٧ ـ ٢٨

(٥٠٢) المصدر نفسه ص ٧٠.

بها، فلم يبق بيت من بيوت الانصار الا وفيه قرآن...».

والخلاصة ان الذين تحدثوا عن اعجاز القرآن اللغوي، سواء من جهة جرس الالفاظ، ام من جهة بلاغة التعبير وجمال النظم، لم يبتعدوا عن حقيقة اعجاز القرآن وكذلك الذين تحدثوا عن اعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من معان، وعبر عنه من افكار وموضوعات لم يبتعدوا عن حقيقة الاعجاز ايضاً. فاذا لم تكن هاتان الناحيتان هما مدار الاعجاز كله فانهما وجهان مهمان من وجوه اعجاز هذا الكتاب الكريم، بل هما اهم وجوه اعجازه[٥٠٢].

وبعد، فمهما قلنا في اعجاز القرآن، ومهما نقلنا وفصلنا الوجوه التي يذكرها العلماء، فان ذلك كله ثمرة لوجه واحد هو ان هذا القرآن كلام الله أنزله رحمة للعالمين، فمن الطبيعي اذن تأتي الفاظ القرآن في اعلى درجات الفصاحة، ومعانيه في اعلى وجوه البلاغة، فمن أراد التعرف على حقيقة اعجاز القرآن فينبغي ان يقف عند هذا الوجه، أعني المصدر الرباني للقرآن قبل أن يتجاوز الفاظه ومعانيه، ليبحث فيهما عن وجوه الاعجاز، قال الله سبحانه وتعالى: «وقالوا لولا أنزل عليه آياتٌ من ربه، قُل: انما الآياتُ عندَ الله، وانما انا نذيرٌ مبين. اولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» (العنكبوت ٥٠ ـ ٥١).

ثم ان في القرآن سراً خاصاً، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبلَ ان يبحث عن موضوع الاعجاز فيها، انه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر ان هناك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وان هنالك عنصراً ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا

---

(٥٠٢) يذهب الاستاذ محمود محمد شاكر الى ان القرآن بالنسبة لمن خوطب به اولاً ـ كائن في رصف القرآن وبيانه، دون سائر الوجوه الاخرى التي ذكرها علماء الاعجاز «انظر مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية لمالك ابن نبي ص٢٤ ـ ٢٥». وذهب عبدالرحمن الطاهر بن محمد السورتي إلى عكس ذلك تماماً. يقول: «اختلف العلماء في وجوه اعجاز القرآن، وانما اعجازه في رسالته العليا النافعة للناس كافة.. ولو كان اعجاز القرآن فصاحته وبلاغته في العربية فحسب كيف امن غير العرب به...» «انظر مقدمة تحقيق تفسير مجاهد ص١٣ ـ ١٥». ويميل بعض الدارسين المحدثين الى تفريع وجوه الاعجاز في القرآن الى: ١ ـ الاعجاز اللغوي: ٢ ـ الاعجاز العلمي. ٣ ـ الاعجاز التشريعي. «انظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص٢٦٤ ـ ٢٨٠».

العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أم هو المعنى الكامن فيها؟ أهـو الصور والظـلال التي تشعها؟ أو هـو الايقاع القـرآني الخاص المتميز من ايقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟) أهي هذه العناصر كلهـا مجتمعـة؛ أم انها هي شيء آخـر وراءها غـير محدود؟ ذلـك سر مودع في كـل نص قـرآني، يشعر بـه كل من يـواجه نصـوص هذا القـرآن ابتداء، ثم تـأتي الاسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله، وهذا كله مما يسبغ عـلى القرآن سمة الاعجاز المطلق في جميع العصور، وهي مسألة لا يمارى فيها انســان يحترم حسه ويحترم نفسه، ويحترم الحقيقـة التي تطالعـه بقوة وعمق ووضـوح، حينما يواجه هذا القرآن بقلب سليم[٥٠٤].

واخيراً فان من اعجاز القرآن ان يظل معروضاً على الاجيال تتوارد عليـه جيلاً بعد جيل، ثم يظل أبداً رحب المـدى سخي المورد، كلمـا حسب جيل انـه بلغ منـه الغاية، امتد الافق بعيداً وراء كل مطمح، عالياً يفوت طاقـة الدارسـين[٥٠٥]. او كما يقول الرافعي: «ما أشبه القرآن الكريم في تركيب اعجازه، واعجاز تركيبه، بصورة كلامية من نظام هذا الكـون الذي اكتنفـه العلماء من كـل جهة، وتعـاوروه من كل ناحية، واخلقوا جوانبه بحثاً وتفتيشـاً، ثم هو بعـد لا يزال عنـدهم على ذلـك خلقاً جديداً، ومراماً بعيداً»[٥٠٦].

واذا كان علماء السلف رحمهم الله تعالى قد بحثوا مختلف وجوه اعجاز القرآن فاننا، اليوم ـ بعد اربعة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم ـ نتحسس تلك الوجوه، ونتحسس شيئاً آخر، هو ان هذا الكتاب الكريم قد زاد ـ على مـر السنين ـ مهـابة وجلالاً، فلا تزال النفوس المؤمنة تهفو اليه، والقلوب تتعلق به، والعقول تغترف من نـور حكمته، وكـأنـه يخـاطب النـاس لاول مـرة، يكشف لهم عن اسرار نفـوسهم وطبائعهم، ويعرض عليهم مثال حياة الايمان والخير ويدعوهم اليها، وصور الحياة الجاهلية ويحذرهم منها. فصدق الله العظيم القائل: «أفَلا يَتَدَبَّـرُونَ القرآنَ، ولـو كان مِنْ عندِ غير الله لَوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (النساء ٨٢).

---

(٥٠٤) انظر في ظلال القران ٢٧/ ٣٢٩٩.

(٥٠٥) انظر عائشة عبدالرحمن: الاعجاز البياني للقرآن ص١٥

(٥٠٦) اعجاز القران والبلاغة النبوية ص١٥٧

موضوعات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة